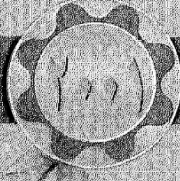


مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع

إبراهيم عبد القادر المازني

# صندوق الدنيا



الأعمال الفكرية



الهيئة المصرية  
العامة للكتاب

صندوق الدنيا

## لوحة الغلاف

اسم العمل الفني : الخبز

التقنية: زيت على أبلكاش

المقاس: ٦٢ x ٧٨,٥ سم

مقتنيات: متحف الفن الحديث بالقاهرة

محمد ناجى (١٨٨٨ - ١٩٥٦)

ولد الفنان محمد ناجى بالإسكندرية، ودرس الفن فى مصر والخارج، وعمل مع كلوديا مونييه بباريس، وفى ١٩٣٧ أقام معرضاً للوحات التى صورها فى الحبشة (قاعة الفنون الجميلة بلندن)، وعين مديراً لمتحف الفن الحديث ١٩٣٩، ومديراً لأكاديمية مصر فى روما ١٩٤٧، والفنان ينحونجاء الفن التأثيرى ذو الطبيعة المصرية، ويعد سابقاً لعصره .

محمود الهندى

# صندوق الدنيا

الطبعة الثانية

إبراهيم عبد القادر المازني





**مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١**

**مكتبة الأسرة**

**برعاية السيدة سوزان مبارك**

**(الأعمال الإبداعية)**

**الجهات المشاركة :**

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

**صندوق الدنيا**

إبراهيم عبد القادر المازنى

الغلاف

والإشراف الفنى :

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

---

## على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمهم للمعرفة دون عناء مادي وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تترجم فى صدارة البيت المصرى بئراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

---

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

كنا نفرح « بصندوق الدنيا » ونحن أطفال ... نكون في لعبتنا وصخبنا فيلبح أحدنا « الصندوق » مقبلاً من بعيد فيلقى ما بيده من « كرة » أو نحوها ويطلقها صيحة مجلجلة ويذهب يعدو متوثباً ونحن في أثره ، وتعلق بثياب الرجل أو مرقعته على الأصح ، فما هي بثياب إلا على المجاز ، فهذا ممسك بكفه ، وذاك بحزامه ، وآخر يده على الصندوق ، وهو سائر وظهره منحني تحت حمله ، ولحيته الكثة الغبراء مثنية على صدره ، ونحن نتلاغط حوله وتثوب ، حتى يصير بنا إلى الظل ، فيضع « الدكة » الخشبية على الأرض فنكون فوقها نتراحم ونتدافع وتتصاحج وننشأتم قبل أن تستقر على أرجلها ، والرجل ساكن الطائر لا يعبأ بنا ولا يولينا نظرة ولا يحفل من بقى منا على « دكته » ومن زحزح عنها فوقع على الأرض فقام يلعن ويسب أو يبكي ويتوجع ، أو يمضى إلى الحائط فيلصق به كتفه ويعمل يده في عينه .

ويخلع الرجل الحوامل عن كتفه ويقيمها أمامه ويرفع « الصندوق » ويحطه عليها ، فيزحف نحن « بالدكة » إليه ونذني وجوهنا من العيون الزجاجية الكبيرة ، وننظر وننتظر . فإن صاحبنا لا يعجل ، ويطول بنا النظر إلى لا شيء . والانتظار على غير جدوى ، فنرتد برءوسنا عن عيون الصندوق ، ونرفع إليه وجوهنا الصغيرة ، فيبتسم ويبسط كفاً

كالرغيف ويقول : هاتوا أولا ، فتندفع الأيدي إلى الجيوب تبحث عن  
الملاليم والنصافها فتفوز بها أو تخطئها ، فتبيض وجوه وتسود وجوه  
وتلمع عيون وتنطفئ عيون ، وتفتر شفاه وتمط أخرى أو تتدلى ، ويقبل  
المعدم ، على المؤسر ، يستسلفه مليما ، ويحدث في عالم الصغار ما يحدث  
في عالم الكبار ، من جود وبخل ، ومن مسارعة إلى النجدة أو اغتنامها  
فرصة للانتقام ، ومن مساومة ومشاركة ومطل ، ومن تغيير ببحود  
يد سلفت ، ومحاسبة على دين قديم ، ويرجع المحرومون كاسفين آسفين  
أو ناقلين ثأرين ، أو راضين غير عابئين ، ويقعد السعداء ويقبلون على  
« الصندوق » وقد نسوا أخوانهم ، فكأنهم ما خلقوا ولا كانوا منذ  
دقائق قليلة أندادا يتلاعبون ويفرح بعضهم ببعض ويحسد في قربه  
الروح والغبطة والأنس ، ويطل الرجل من عين في جانب « الصندوق »  
ويدير « اليد » فتبدو لعيوننا المشربة صور « السفيرة عزيزة » ربة  
الحسن والجمال ، و « عنزة ابن شداد » الذي كان :

يهزم الجيش أوحديا ويلوى

بالصناديد أيما الواء

و « الزير سالم » و « يوسف الحسن » . .

ويكف اللسان عن الوصف والتحدث ، واليد عن الإدارة والعرض  
، فقد انتهى « الدور » واستوفينا حقنا ، فأما « دور » آخر بملاليم  
جديدة ، وإلا فالقناعة كنز لا يفنى .

وقد شبت عن الطوق جداً ، وخلفت ورأى طفولتى التى  
لا تعود .

وصرت غبرى فليس يعرفنى  
إذا رأى الشباب ذو الطرر  
ولو بدا لى لبت أنكره  
كأتى لم أكنه فى عمرى  
كأنا اثنان ليس يجمعنا  
فى العيش ، ألا تشبت الذكر  
مات الفتى المازنى ثم أتى  
من مازن غيره على الأثر (١)

ولكنى مازلت امت إلى طفولتى بسبب قوى ، وما انفكت أحرأى  
معقودة بأولاهها . كنت أجلس إلى الصندوق وأنظر مافيه ، فصرت أحله  
على ظهري وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن  
يستوفى نقر من أطفال الحياة الكبار ، فأحط الدكة وأضع الصندوق  
على قوائمى وأدعهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم  
قليلة يجودون بها على هذا الأشعث الأغر الذى شبر فيافى الزمان ،  
وما له سوى آماله وهى لوافح ، ونجم سوى ذكرى نورها خافت .  
لهذا سميت « صندوق الدنيا » .

---

(١) من قصيدتى « كأس النسيان » .

ولا أزال أجمع له وأحشد ، وما فقي السؤال الأبدى عندى مذ  
حملت صندوق على ظهري « ماذا أصور ؟ » هذه هي المسألة كما يقول  
« مهملت » في روايته الخالدة ، والفرق بينى وبين مهملت أنه معنى بالحياة  
والموت ، وبأن يكون أولاً يكون ، وبأن يبقى على نفسه أو يبخعها ،  
أما أنا فلا يعنينى شئ من هذا ، ولست أراى أحفل لا الحياة ولا  
الموت ، ولا الوجود ولا العدم ، أو لعل الأصح والأشبه بالواقع أن  
أقول لنى لا أرى وقتى يتسع للتفكير فى هذا ، ذلك انى صرت  
كالذى زعموا أنه كانت له زوجة ترهقه بالتكاليف وتضنيه بالأعمال  
التي تعبد إليه فيها وتأمره بأدائها ، قالوا فأشفق عليه صاحب ورثى له ،  
فأشار عليه أن يطلقها لينجو بنفسه من هذا العناء ، فطأطأ الرجل رأسه  
ثم رفعه وقال : « ولكن متى أطلقها ؟ لا أرى وقتى يتسع لهذا ، .  
كذلك أنا - أنا زوج الحياة الذى لا يستريح من تكاليفها - أقوم  
من النوم لا أكتب ، وأكل وأنا أفكر فيما أكتب ، فالتهم لقمة واخط  
سطلاً أو بعض سطر ، وأنام فأحلم انى أهديت إلى موضوع ، وأفتح  
عيني فإذا بى قد نسيت فأبتسم وأذكر ذاك الذى رأى فى منامه أن رجلاً  
جاءه فنقده تسعة وتسعين جنيهاً فأبى إلا أن تكون مائة ، فلما انتسخ الحلم  
ورأى كفه فارغاً عاد فاطبق جفونه وبسط راحته وقال : « رضينا فهاى  
ما معك ، .

واشتاق أن الالعاب أولادى فيصدنى أن الوقت ضيق لا ينفسح للعب  
والعبث وأن على أن أكتب ، وأرى الحياة تزخر تحت عيني فاشتتهى أن  
أضرب فى زحمتها وأسوم سرحها ولكن المطبعة كجهم لا تشبع ولا تمل

قوله « هات » وأكون في المجلس الحالى بحسان الوجوه رفاق القلوب  
وبكل من كان يتحسر مهيار على مثلها ويقول :

آه على الرقة في خدودها  
لو أنها تسرى إلى فؤادها

فأشرد عنهن وأذهل عن سحر جفونهن وأروح أفكر في كلام أكتبه  
صباح غد ؛ وأشرب فلا أسهو ؛ وأضحك فلا أرائى الهو ، ويضيق صدرى  
فأتمرد وأخرج إلى الطرقات أمتع العين بما فيها مما تعرضه الحياة ، فإذا بي  
أقول لنفسي أن كيت وكيت عما تأخذه العين يصلح أن يكون موضوع  
مقال ، فأقنط وأكرر راجعا إلى مكتبي لأكتب ... وهكذا كأني موكل  
بفضاء الصحف أملاؤه ، كما كان ذلك الشاعر القديم المسكين موكلا بفضاء  
الله يذرعه .

وشر ما في الأمر أن يحى إلى صديق فيقول . . أقترح عليك أن  
تكتب في كيت وكيت ، وتحاول أن تفهمه أن كيتا وكيتا هذين لا  
يحركان في نفسك شيئا ولا يهزان منها وتراً فلا يفهم ، لأنه — على  
الأرجح — يظن أن الكتابة لا تكلف المرء جهداً ، وأن القلم هو الذى  
يجرى وحده بما يقطر من مراعه وأن العقل والنفس لا دخل لهما فيما  
يخطه .

وإذا ظلمت أكتب وأكتب هكذا فاذا يكون ؟ لا أقول إنى  
سأفلس ، فإن الحياة لا تنفك أبداً جديدة فى رأى العين والعقل وهى  
لا تزال تسفر كل يوم عما يحرك النفس ، ولكنى خلى أن أجن ...



نعم وماذا عسى أن يكون آخر هذا النصب ؟ ودع الجنون فلو كان  
إنسان يحزن من كثرة ما كتب لكان عنواني قد تغير منذ أعوام عديدة ،  
ولكن تعالى نجر حساباً صغيراً نسقط منه كل ما ليس بالآدبي .  
أنا أكتب في الأسبوع مقالين ، فجملة ذلك في العام تبلغ المائة وكل  
مائة مقال تملأ خمسة كتب كهذا ، فسيكون لي اذن بعد عشرة أعوام —  
إذا ظلت هكذا — ثلاثون كتاباً غير ما أخرجت قبل ذلك ، أى أن  
كتبي أنا وحدي تملأ مكتبة صغيرة يجد فيها القراء ما يشتهون ولا يعدمون  
منها متعة أو سلوى ، وصاحبها لم يستفد إلا العناء .

وبالبلاء والداء العياء أن تكتب مرة مقالة فكاهية ، والطامة الكبرى  
أن تكون المقالة جيدة ، وأن تكون الفكاهة فيها بارعة . لا أمل لك بعد  
هذا أبداً . . . لأن الناس يذهبون ينتظرون منك بعد ذلك أن تطرفهم  
بالفكاهات في كل مقال آخر . فإذا أخطأوا عندك ما يطلبون من الفكاهة  
فالويل لك ، وأنت عندهم قد أصفيت أو ضعيف لا تحسن أن تكتب ،  
أو غير موفق فيما تحاول ، حتى ولو كنت تكتب جاداً ولا تحاول أن  
تمزح أو تتفكه . والناس معذورون ، فإن وطأة الحياة ثقيلة ، وما  
دمت قد عودتهم أن تسليهم وتضحكهم أو أطعمتهم وأنشأت في نفوسهم  
الامل في هذا فإذا تريد أن تتوقع ؟ ولكن الناس أيضاً خلقاء أن يذكروا  
أن الحياة قد تكون ثقيلة على الكاتب ، وأنه لعل في نفسه جرحاً وفي  
صدره قيحاً ، وأنه عسى أن يكون ممن يودون لو يضحكون ويضحكون  
غيرهم ، ويتمنون لو استطاعوا أن يجعلوا الدنيا جنة رفاقة للبشر ولكن  
هموماً تجثم على الصدور تقلص الوجه وتطفى لمعة العين وتحبس البشر

الذى يريد أن ينطلق وترد الضحكة التي كانت تهم أن تفرقع  
لقد صدقت فيما كتبت به إلى صديق على صورة لى .  
أخوك إبراهيم يا مصطفى  
كالبحر لا يهدأ أو يستريح  
كالبحر حتى الموج يقظانه  
لكنه من نفسه في صريح  
من حوله الشيطان لا تنثنى  
تجسسه دون انسياج الفتوح  
خلت من المعنى لحاظ له  
وكانت البرق المضى المليح  
حواء يا أماء أنت التي  
أورثتني هذا البلاء الصريح  
كم آدم أخرجت يا أمنا  
من خلده ، بعد أبينا الطليح  
الخ الخ الخ .

وكما أن «صندوق الدنيا» القديم كان هو بريد «الفانوس السحري»  
وشريط «السينما» و«طليعتهما» ، كذلك أرجو أن يقسم لصندوقى هذا أن  
يكون — فى عالم الأدب — تمهيدا لما هو أقوى وأتم وأحفل . ولين غيرى  
القصور ، فقد أضناني قطع الصخور ، وتفتيت الوعور ...

ابراهيم عبر القادر المازنى

## شدوذ الأدباء

الناس متفقون على أن الأديب على العموم، والشاعر على الخصوص، صنو المجنون ونده وقريبه، وقد لا يقولون ذلك بالسنتهم ولكنهم يقولونه بسلوكهم نحوه، فهم يفرضون فيه الشدوذ عن المؤلف ويتوقعونه ولا يستغربونه ويحملون كل ما يصدر عنه على هذا المحمل ويردونه إلى هذا الأصل عندهم، وليس في هذا إكبار منهم له، فانه بسبيل من سلوكهم نحو صنوف اللثائين الذين يطلقون عليهم وصف «المجازيب»، كلا الفريقين مقبول عندهم على التسامح والعطف والمرثية، ولو أن الناس رأوا رجلا يلبس ثيابه مقلوبة، أو يمشى على رأسه وقيل لهم انه شاعر لاقتنعوا ولبطل العجب، كان المثنى على الرأس شيء يوائم الشاعرية أو هو مما تستلزمه حين يزخر عباها..

عرفني مرة احد الاخوان باثنين من الاعيان كانا معه في مجلس فكان مما وصفني لهما به اني شاعر فابرت اساريهما وغمر البشر وجهيهما واستغنيا عن «تشرقنا» واعتاضا منها «ما شاء الله»، و(سبحان الفتاح) واقبل على أحدهما يربت لي ظهرى ويمسحه لي بكف كضرب الكرة ويقول: «اسمعنا شيئا»، كأنما كنت مغنيا على الربابة، ولو انى كنته لاستحييت أن اجيبهما إلى ما طلبا على قارعة الطريق ولشد ما خفت — وهما يلحان على — أن يمد أحدهما يده إلى بقرش ..

وقد يتفق لى أن أكون مع جماعة من الاخوان فافضى بالملاحظة  
أو الفكرة أحسبني وفقت فيها وكشفت عن أستاذية وبراعة ودقة  
فلا أكاد أفرغ منها حتى أسمع من أحدهم أن هذا « خيال شاعر » وليته  
مع ذلك يعنى شيئا سوى الفوضى والهذيان وقد أسكت وأشغل نفسى  
عنهم بشيء أفكر فيه فانتبه على التغامز .

وبالبلاء والداء العيام أن المرء يتحرى أن يجعل سلوكه مطابقاً على  
أدق وجه للعرف والعادة فى كل صغيرة وكبيرة فلا يرى أن هذا يزيد  
الاشدوذا فى رأيهم . كان هذا الشدوذ المفروض فيه يبيح لهم أن يشدوا  
هم معه . كنت ليلة مستغرقاً فى النوم — ولعلى كنت أغط أيضاً . وإذا  
بالباب يقرع كأن الواقف به قد استقر عزمه على تحطيمه ، ففزعت وقت  
إلى النافذة أسأل عن هذا الطارق فقال فلان . فخل العجب والحيرة  
محل الفزع ، ولم يكن فلان هذا بمن أتوقع زيارتهم فى النهار فضلاً  
عن الليل ، وفى الصيف فضلاً عن الشتاء ببرده القارس ومطره المنهمر  
وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل ، فلولا دهشة المفاجأة ولجاجة  
الرغبة فى الوقوف على سر هذه الزيارة المزعجة لقدفته من النافذة بكل  
ما فى الغرفة من أحذية ومخدرات بل لفككت السرير وهشمت له رأسه  
بأعمده — من النافذة أيضاً . فقد كان فوق ذلك كله من أثقل خلق الله .

ونزلت إليه والمصباح فى يدي وفتحت الباب ووقفت فى مدخله  
« حجر عثرة » فى سبيله وبودى لو أستطيع أن أكون « حجر منية » لجرى  
بيننا هذا الحديث :

هو — ليلتك سعيدة .  
أنا — مصححاً — نهارك سعيد  
هو — آه صحيح .. نهارك سعيد . هل كنت نائماً ؟  
أنا — نائماً ؟ وماذا كنت تظننى فاعلا غير ذلك ؟ اكنت تتوهم  
أننى هنا حارس ؟  
هو — ها ها .. ها ها ها ..  
أنا — ها ها ؟؟ ماذا تعنى بهاماك هذه ؟ ألا تشعر أن من  
واجبك أن تبين لى السبب فى ازعاجى فى ساعة كهذه ؟ ألا ترى  
أن ها ها التى تملأ بها طباق الجولا تكفى وأن خيرا لك أن تضم  
فكيك قليلا وتتكلم بلغة مفهومة ؟  
هو — لقد كنت أظن انك ...  
أنا — كنت تظن ماذا ؟  
هو — وعلى وجهه ابتسامة جعلته بكلمة الميت — لم يخطر  
لى والله أنك نائم .  
أنا — بصوت هادى ولهجة مرة — ولماذا بالله ؟  
فترك الجواب على هذا وقال :  
— لست استغرب أن تتركنى واقفاً بالباب فى هذا البرد وأن كنت  
قد قطعت اليك أربعة كيلو مترات مشياً على قدمى ، فان لكم معاشر  
الشعراء لاطواراً وبدوات غير مأمونة .  
فأطار صوابى تحميلة اياى اللوم على ذنبه . ولم أعد أحفل أهو أقوى

منى أم أضعف فقبضت على عنقه وصحت به  
— لقد كان ينبغي أن تمشى إلى جهنم . وسأدفنك حيا إذا رأيتك هنا  
ليلا أو نهارا أسمعت ؟

ودفعته عنى فانطلق يعدو كالقنبلة  
وتم من يرانى أنسى شيئا أو أضعه فى غير موضعه أو أهمل أمرا  
أو أطيل الصمت أو أفعل حتى ما يفعله الناس ... أكل أو أشرب أو  
أنام ، ألا أحالوا على الأدب وتخيلوا فيما أنا فاعل أو تارك شذوذا  
ملحوظا حتى ضقت ذرعا بهذه الحال وصار وكدى ان اقنع كل من  
يتيسر لى اقناعه انى لست بالاديب ، وان قرض الشعر لم يكن منى  
الا لهوا وتسلية — وعسى ان اكون افلحت فليس امض للانسان من  
ان يرى الناس يعدونه غير مسئول

## الصغار والكبار

قلت لابني عصر يوم - وفي نيتي أن أزجره زجراً قويا عن العبث بكل ما تصل إليه يده - أنتخب أن تخرج معي اليوم ؟ ، وسبقته إلى الباب الخلفي المفضي إلى الصحراء وقلبا كنت استصحبه لتعذر السير عليه في الرمال ، فرمى الكرة ومضى يعدو خلفي ليلحق بي . فلما اطمأن بنا السير شرعت استقصي معه ما يعلم وما يجهل وما ينبغي أن يعلم ، وكانت خلاصة دفاعه - بالفاظي أنا لا بالفاظه هو - أنه يكلف العلم بأشياء عديدة يجد عسرا في فهمها وإدراكها ، مضافاً إلى ذلك أنه لا يدرى كيف يمكن أن تعنيه هذه المعارف التي يطلب منه الإلمام بها ، وإن كثيراً مما يشتهي أن يعرفه ويلذ له ويمتعه أن يحيط به ، لا يجد من يدلّه عليه هذا فيما يتعلق بالعلوم والمعارف ، أما من حيث السلوك والسيرة ، فالمسألة أدقّ والمشكل أشدّ تعقداً ، ذلك أنه لا يزال يلقي - في المدرسة وفي البيت - أن للخير والشر آثارا ونتائج تحيره جدا حين يتأملها أو يحاول أن يردّها إلى أسبابها ، مثال ذلك أنه غافلنا مرة واقتطف من الكرمة عنقودا اضطره اقتطافه إلى المخاطرة بالتسلق ، وأكله ، ولم يكتفى أنه كذب حين سئل في ذلك فقال - أن العنب كان يشب إلى فيه . ومن العجيب - في رأيه هو - أنه كان في ذلك اليوم أصح وأنشط وأنه لم يصبه سوء ما وأن

الله لم يعاقبه لا على الكذب ولا على أكل العنب خلصة ، ولا على الخطأ في كظم معدته وإدخال طعام على طعام . ولم أكن أتوقع من ابني هذه المحاضرة التي باغتني بها وعارض لي فيها الواقع بما في الكتب وما على ألسنة المربين ، فخرت ولم أدر ماذا أقول له . وتحلل العزم على تأنيبه وألفيتني أفكر في الطفولة وطبيعتها ، وفيما نمتخ به هذه الطبيعة بما نحاول من إكراهها عليه وصبها فيه ، ثم تملكني روح العبث الذي انتكره عليه والذي كنت أهم أن أزجره عنه ، فقعدت على الرمل واقعدته أمامي وقلت له بعبارة أقرب من هذه إلى مستوى إدراكه .

« أسمع . إني أفكر الآن في تأليف كتاب على نمط جديد ، كتاب مدرسي ولكنه يخالف كل ما في المدارس من الكتب ، كتاب لذيذ ممتع جدا ، ولكنني لا أستطيع أن أضعه وحدي ، بل لا بد لي من معين فها قولك في معاونتي ؟ هل تقبل أن تشاركني في تأليف هذا الكتاب ؟ »  
فنهض إلى ركبتيه وأقبل على وجهي يربت لي خدي بكفيه الصغيرتين ويسألني وهو يضحك :

« يا بابا ماذا تقول ؟ »

« أقول إني أريد . بمعاونتك . أن نصلح هذه الدنيا التي نراها . أنا وأنت . مقلوبة ؟ »

قال « وكيف تفعل ذلك ؟ وكيف أساعدك أنا ؟ وماذا يسعني ؟ »

قلت « يسعك شيء كثير جدا ، فليس كونك صغيرا بمانع أن يكون



لك عمل كبير . ولكن لا تربكنى بكثرة الاسئلة ، وخير لنا وانجح  
لقصدنا أن نتقصى الموضوع على مهل . ويجب قبل كل شيء أن أكون  
واقفاً من استعدادك لمعاوتي ومن انك ستفكر تفكيراً جدياً فيما يستقر  
عليه رأينا ،

فتعهد لي بذلك . فقلت له

« أليست شكواك أن الكبار من أمثالي .. »

« ليسوا من أمثالك يا بابا . »

« حسن - أليست شكواك أن الكبار - غيرى - لا يحسنون تعليم  
الصغار أمثالك ؟ »

قال نعم

قلت ماضياً فى كلامي - « وأن الكبار يلزمون الصغار سلوكاً يبدو  
للصغار غير معقول ويعاملونهم معاملة يمكن أن نسميها غير عادلة ؟ »

قال « نعم . وأنا أقول لك - لماذا ينبغي دائماً أن أنام فى الساعة  
الثامنة ؟ لماذا لا يسمح لى بالسر أحياناً مع الكبار إلى أن أحس بالحاجة  
إلى النوم ؟ وإذا لم أنم كما تريد جدتي - حتى فى النهار - فلماذا تقول لى  
إني ولد عنيد . »

قلت « هذا صحيح وإذا اتفق أن دار أمامك حديث وبدأ لك أن  
تقول كلمة كغيرك من الجالسين ، زعموا أن هذا منك قلة أدب وسوء  
سلوك » أليس كذلك ؟ »

فهز رأسه مراراً وهولاً يستطيع النطق من الاغراق في الضحك ومضيت  
أنا في ملاحظاتي التي شاقته وأعجبته وأرضته فقلت :

« وإذا رأوك تلعب بالكرة قالوا لك انك شقي وأن اللعب بالكرة  
غير محمود ، وإذا سكت ولم تلعب ولم تتكلم ، زعموا انك سيء  
الطبع ، أو ادعوا انك مريض وسقوك على كره منك ملء فنجان من  
زيت الخروع .. »

فقاطعتي متمماً لي ملاحظاتي :

« وإذا كانوا يبحثون عن شيء ولا يجدونه ظنوا إلى أنا الذي خبأته  
ثم إذا وجدوه حيث وضعوه نسوا أنهم هم الذين فعلوا ذلك واتهموني  
أنا ، وأجادهم وأبين لهم أن لا دخل لي في ذلك كله فيختمون حوارهم  
معى بأنهم تعبوا من الكلام معى كئانى أنا لم أتعب أيضاً من سماع  
كلامهم »

فقلت بدورى مقاطعاً :

« وإذا كسروا قلة أو كوباً لم يسألوا عيونهم لماذا لم ترها كأن  
عيونهم ليست مكلفة أن تبصر شيئاً أبعد من أنوفهم ، بل راحوا  
يتساءلون عن وضع القلة هناك وأضعها هو المسئول .. »

قال « أما إذا كسرتها أنا فالويل لي من شيطان يجب أن يحبس  
في غرفته منفرداً ،

قلت « وإذا كلفوك أن تأتى بشيء ولم تجده لأنه ليس في المكان

الذى بعثوا بك اليه ، أو لأن شخصاً نقله ، فانك تكون فى رأيهم ولدا خائباً وغيباً لا يفهم »

قال « وانا دائماً المخطئ وهم أبداً على صواب حتى صرت واثقاً انى لا يمكن أن أكون مصيباً فى عمل أو قول ، وهذا يحيرنى جداً ويربكنى يا بابا »

قلت « اظن الآن أن موضوع الكتاب صار واضحاً ظاهراً الحدود بين المعالم ، وستقلب فيه المسألة ونجعل الصغار هم العقلاء الحكماء الذين لا يخطئون أبداً ، والكبار هم الأغبياء البلاء الذين لا يصيرون والذين يحتاجون إلى الرقابة والإرشاد والتأديب والزجر .. »

فطار الغلام من الفرح ووثب إلى رجله وانهل على تقبيلها وألح على بالسؤال - « اصحيح ما تقول يا بابا ؟ »

« قلت ، نعم ، وستسميه ( المختار فى تهذيب الكبار ) ونجعل الصغار هم الذين يقون فى البيت لتدبير شئونه ، والكبار هم الذين يذهبون إلى المدرسة ونبلسهم ما يلبس التلاميذ والتليذات الآن من البذلات القصيرة ونقص لجدتك شعرها ونخرجها فى قبعة من قبعات البنات الصغيرة ونضع لها على صدرها ( مريلة ) ونبعث بها إلى المدرسة ، وإذا لم تحفظ دروسها عاقبناها بالوقوف ووجهها إلى الحائط ، وإذا أكثرت من اللعب حرمانها الجلوى وإذا لم تتم فى الساعة الثامنة عددناها سيئة الخلق عنيدة ولم نخرج بها للرياضة فى يوم الجمعة . »

قال « ويجب أن نحرم عليها اللعب إلا مع لداتها من الجدات نظائرها

وإذا وجدناها تلاعب واحدة من الشوب عاقبناها بالحبس في غرفتها وإذا جلست ساكنة أو لم تتناول طعامها بإقبال أنمناها في سريرها وجرعناها ملء كوب من زيت الخروع وإذا كرهت طعمه أو تفرزت من مذاقه قلنا لها أنه يفيدها وإننا نحن نعرف ما يصلح لها وما لا يصلح وإذا جلست معنا واشتركت في الحديث انتهرناها بنظرة ، فإذا لم تكف أفهمناها أن الكبار لا يصح أن يقاطعوا الصغار . . .

قلت : « وإذا سألتنا — أعني إذا سألت الصغار — عن شيء نجعله قلنا لها أن هذا الأمر لا يستطيعين فهمه وإدراكه الآن والسيدة المهذبة يجب ألا تكثر من الأسئلة أو تحشر أصابعها فيم لا تفهم ، .  
قال : « وإذا أكلت من الشيكولاتة أكثر مما يوافقها لم نأخذها إلى السينما وحرمانها مناظر شارلى شابلن وأضرابه . »

ثم رفع إلى وجهه وقد بدت عليه أمارات التفكير الجدى وسألني .  
« ولكن هل نسمح لها بالاختلاط بالرجال وملاعبتهم ؟ »  
قلت : « بقدر . وعلى أن يكون لنا — أعني للصغار — حق المراقبة والتدخل إذا وجدنا أن الضرورة تقتضى ذلك . »

قال : « والدروس التي نتلقاها الآن ألا يتغير منها شيء ؟ »  
قلت : « أكثرها يبقى كما هو ، ولكن الموضوع من كتب المطالعة والمحفوظات يتغير لأنه في الأصل معمول للأطفال ، وهذا يعود بنا إلى مشروعاتنا ، فإن الذى أفكر فيه وأريد منك أن تعينى عليه ، هو كتاب

يحتوى طائفة متخيرة من القصص والموضوعات يتعلم منها الكبار آداب السلوك وما لهم وما عليهم فى الحياة ، والواجبات المفروضة عليهم نحو الصغار أولياء أمورهم ، ولذلك ينبغي أن يلغى من الكتب أمثال ( سمير الأطفال ) و ( القراءة الرشيدة ) للأطفال فانها جميعاً لاتصلح لمشروعنا .

قال : « ومن يؤلف هذه القصص ؟ »

قلت : « أنا وانت ، ولسنا نحتاج إلى تعب كبير لأن الامر لا يتطلب فيما أقدر إلا تحريراً قليلاً يجعل القصة للكبار بدلاً من الصغار ،

قال : « وهل نطبع الكتاب ونبيعه ؟ »

قلت : « ولم تتكلف وضعه إذا لم نطبعه ونبيعه ؟ »

قال : « وهل يشتريه الكبار ويقرأونه ؟ »

قلت : « إذا لم يفعلوا فان فى وسعى أن أوعز إلى نفر من أصدقائى بأن يحملوا فى الصحف على الكتاب حملة عنيفة ، وبأن يصفوه بأنه مخالف للآداب ومناف لكل مآدرجت عليه الانسانية ، وهذا وحده كفىل بترويجه ،

قال : « وهل كل ما يخالف الآداب يطلبه الناس ؟ »

قلت : « لا أستطيع أن أقول نعم أولاً ، ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن حب الاستطلاع يدفع الناس إلى طلب هذا الكتاب الفريد فى بابه . »

قال : « وكيف تقرأ جدتي وهي أمية ؟ »

قلت : « ان الأمية الفاشية بين الكبار من أمثال جدتك مما يسوغ مشروعا ويجعله ضروريا ، أليس الواقع الآن في الأغلب والاعم أن الجهلاء هم الذين يتولون تربية المتعلمين أمثالنا أو توجيههم في الحياة واختيار ما يصلح لهم ، والأمريئبغى أن يكون على تقيض ذلك . »

قال : ولكن إذا لم نحسن تدبير المنزل أو إذا لم تجد الصغيرات مثلا طيبا الطعام وتدمر منه الكبار ؟ »

قلت : « لن يعوزنا كلام نسكتهم به كما يفعلون بنا الآن ، وما علينا إلا أن نهمهم بالبطر والتدلل القبيح ونزجرهم عن ذلك »

فضحك وقال : « إنك ماهر جدا يا بابا ، ولا بد أن يكون الكبار قد ضايقوك جدا في صغرك فأنت الآن تريد أن تنتقم منهم . » ثم ألقى إلى نظرة خبيثة وهو يسأل « هل كان أبوك ثقيلا يا بابا ؟ » فتماسكت بجهد وسألته بدورى :

« ثقيلا مثل من ؟ »

قال : « لا أعنى مثل أحد ولكنه سؤال فهل أخطأت فيه ؟ »

قلت « كلا ولم يكن أبى ثقيلا فيما أذكر ، وعلى أنه لم تتح له معى فرصة كبيرة لذلك ، فقد مات وأنا صغير . »

وهنا رأيت أن الأحزم أن نعود مخافة أن يسترسل فى مثل هذه

الأسئلة المخرجة ، التي جرها على التبسط معه في هذا الموضوع والاطفال  
— كما يعرف ذلك من كلبهم — لا يستطيع المرء أن يتكهن بما يجري  
في رؤوسهم أو يعرف ماذا يتوقع منهم فإن لهم وثبات غير مأمونة .  
فنهضت وطلبت منه أن يفكر في الموضوع ، وبينما كنا عائدتين  
سألني فجأة .

« وانت يا بابا هل نضعك مع الكبار أم مع الصغار ؟ »  
فدفعت الباب ولم أحر نطقاً .

## الحقائق البارزة في حياتي

تمهيد — حدث منذ عامين ، أو نحو ذلك . . ان حومت الجريدة التي كنت أتولى رئاسة التحرير فيها ، حقاً ، ولا داعي هنا لبيان الموضوع فقد مضى أوانه ، وليس هذا على كل حال محله ، فكتبت على أثر ذلك مقالاً قوياً — أو لعل الأصح أن أقول إنه عنيف — نقلته صحيفة فرنسية بنفسه ونصه ، وبعد يوم وجدت على مكنتي بطاقة ( دكتور ) يرأس صحيفة نمسوية وكلاماً في ظهر البطاقة حسبته في أول الأمر ألمانيا ثم قيل لي إنه فرنسي ثم تبين إنه انجليزي فاقنعت ولم أواصل البحث مخافة أن يتضح إنه عربي وأوجز فأقول اني استقبلت الزميل الفاضل في مكنتي في الساعة التي اتفقنا عليها تليفونيا . ولم يتجاوز الفرق بين ما فهمته انا وما فهمه هو أربع ساعات لا أكثر ، فكنت أنا جالساً أمام مكنتي في الساعة الثالثة مساء ووافاني هو في الساعة السابعة مقدماً بين يديه اعتذاره من حضوره قبل الموعد بنصف ساعة ، ودار الحديث بيننا فأفضيت إليه بجواب ما اعتقد مخلصاً إنه سألتني عنه ويايضاح ما أشكل عليه فهمه من موضوع الخلاف السياسي ومواقف الأحزاب في ذلك الوقت وما إلى ذلك بما يتصل به من قريب أو بعيد، واعتقدت إن الأمر انتهى عند هذا الحد ولم يخالجنى شك في ان الله أرحم من أن يبلوني بحديث آخر ، ولكن المقادير جرت لسوء الحظ أو لحسنه ، بغير ذلك



فعاد الدكتور الفاضل يرجو منى شيئاً آخر لا أقل من أن اتفضل عليه بترجمتي أو تاريخ حياتي وكان الدكتور أظرف وأكبر من أن أرفض له طلباً ، ولكن تاريخ حياتي ١١٠٠ تصور هذا ؟ فأحلتني أولاً على ترجمة كنت قد كتبها منذ سنوات تمهيداً لمختارات من شعري وقد نشر ذلك كله في كتاب « شعراء العصر » ولكنه اعتذر وقال إنه فهم من كلامي إن الترجمة مكتوبة باللغة العربية وإن الكتاب مطبوع في سوريا ووقته أضيق من أن يسمح له بالسفر إلى ذلك القطر وإن كان لا شك عنده في أنه لو تيسر له السفر لآلني الترجمة التي أشير إليها وأفية بالغرض ثم تفضل فذكر لي أنه علم من بعض من اتصلت أسبابه بأسبابهم من المصريين أنني من رجال المدرسة الحديثة في الأدب وإن هذا هو الباعث له على الالتجاء علي في الرجاء أن أوافيه بترجمتي فسرني هذا ورأيت فيه فرصة لانتشار اسمي إلى ما وراء مصر واستفاضة ذكرى علي السنة الغربيين . وتوقعت بعد أن أجيبه إلى سؤاله أن يتقدم إلى واحد أو اثنان أو ثلاثة من ناشري الكتب في أوروبا يطلبون السماح لهم بترجمة كتي ولإذاعتها في العالم الغربي ، فلا يعود المازني بعد محتاجاً إلى وظيفة ثقيلة مضنية كرياضة التحرير في صحيفة يومية . ففكرت يدي مغتبطاً وقلت له اني طوع أمره ورهن مشيئته ولكن في حاجة إلى يوم أو يومين اجمع فيهما الحقائق البارزة وأحضرها إلى ذهني استعداداً للإجابة وفي اليوم المعين تلاقينا فدار بيننا الحديث الآتي :

هو — إنني مستعد ياسيدي . تفضل .

أنا — أرجو أن تغفر لي لهجة الزهو التي قد تحسها من كلامي

ولا شك أن التواضع فضيلة ولكن الحقيقة أسمى وأجل . أليس الأمر كذلك ؟

هو — بلا ريب .

أنا — والحقيقة أنى من بيت قديم عريق جداً يستطيع أن يحدثك عنه آلاف من الناس لو كلفت نفسك سؤالهم .

هو — لا شك عندى فى ذلك يا سيدى ( وانحنى لى )

أنا — وأنتم معشر الأجانب تشمخون علينا بأنوفكم كأن بلادكم هى وحدها التى تعرف الارستقراطية لأن فيكم من يستطيع أن يعد عشرة أو عشرين من الجدود . ولعل أكثرهم كان من الفتاك وقطاع الطرق . فأنا فى مقدورى أن أتلو عليك أسماء مئات من الجدود لا عشرة ولا عشرين ليس من بينهم إلا من هو مستفيض الذكر . ولن تجد اعتق من هذا النجار ولا أعرق من ذلك الفخار .

هو — أه ؟

أنا — نعم يا سيدى فإن جدى الأعلى رجل لا شك عندى فى أنك سمعت به وقرأت عنه إن كنت قد قرأت شيئاً .

فبدأ عليه الاهتمام ورفع سن الفلم على الورقة ومنحنى أذنه — واحترامه أيضاً — وقال وقد رأى سكوتى ريثما يتم أهبطه ( انى مصغ ) .

أنا — وهو لا أقل من آدم نفسه .

فوقع القلم من بين أصابعه وهوت يده إلى جانبه وخيل إلى لحظة  
أنه سيسقط عن كرسيه عجزاً عن احتمال كل هذا المجد وسرني أن  
أرى فعل كلامي في نفسه ، ولكنها لم تكن سوى لحظة ثم نهض فجأة ومد  
إلى يده فنهضت مثله ومددت له يدي وقد ظننت أنه سيستأذن غير أنه  
خيب أمني وقال :

فهزرت يده سروراً بهذه القرني وقلت :  
هو — لي الشرف يا سيدي بأن أقول لك اني أيضاً أمت إلى  
هذا الشيخ الجليل بسبب ، وتحقيقاً لذلك أقول إن جدتي العليا حواء  
فنحن أذن قريبان .

فهزرت يده سروراً بهذه القرني وقلت :  
أنا — لقد سهلت على الأمر جداً فأظن بك — وانت غصن من  
هذه الدوحة الفينانة — إلا أنك تعرف كيف كانا في الجنة وماذا  
أخرجهما منها وكيف قتل جدي قابيل جدي هابيل وإن كانت الكتب  
تقول إن أحدهما مات ولم يعقب ولداً ، وأظن جدك القليل ، وغير ذلك من  
الحوادث البارزة التي لا تزال طبقة ترونها عن طبقة وجيل يتلقفها من  
جيل إلى يومنا هذا ، فلنمض إلى من هم أقرب إلينا .  
هو — ان أسرتنا الكريمة أشهر من أن تحتاج إلى تعريف فأرجو  
ألا تجشم نفسك . .

فلم يعجبني أن يحشر نفسه في أسرتي بعد أن أخرجته منها ونويت  
ألا أعدده — فيما بيني وبين نفسي — إلا من سلاله معاتيق جدي قابيل ،  
بيد أنني كتمت هذا وقلت مقاطعاً له .

أنا — سأقتصر على واحد أو اثنين من مشاهير أجدادي الاقربين

لتعرف من أية أيككة كريمة خرج هذا الفرع الذى يتشرف بأن تراه  
أمامك ( انحناء منه ومنى ) فمنهم مالك بن الرب بن حوط المازنى  
وكان زعيماً لقومه وبلغ من قوته وسطوته إنه كان هو ورققاؤه - أعنى  
اتباعه - يقطعون الطريق على رعايا الخليفة ويسومون الناس ما شاؤوا  
غير أن الخليفة لم يحتمل هذه المنافسة ولم يطلق صبرا على هذا المزاحم  
فطلبه وكان مالك قد رأى أن البلاد لم يبق بها ما يستحق أن يؤخذ فتركها  
للخليفة ومضى بثلته إلى فارس حيث لم يكف عن ركوب الناس بالأذى  
حتى أجرى الوالى عليه مبلغاً شهرياً فلم توافقه هذه الحياة الوديعه  
فأت بعد الكف بقليل .

ومن مشاهيرهم هلال بن الاسعر المازنى كان رجلاً فيه فكاكه  
عملية وكان يحلو له أن يركب الناس بالدعاية فكان يشحن سيفه القديم  
ويخرج في الظلام فإذا مر به أحد شكه بالسيف في بطنه فيثب ثم يقع  
على الأرض فيغرب جدى في الضحك ويذهب إليه ويلطفه ويخفف  
عنه حمله ، الا لقد كان مفطوراً على الفكاكه .

ومن أكرمهم أيضاً مسعود بن حرشة المازنى كان شديد العطف  
على الناس والمرئية لهم فعاش عمره لا عمل له إلا اراحة أخوانه في  
الإنسانية من الابل وما يحملون ولكن حساد فضله وشوا به لعامل  
الخليفة فقطع له نصفه الأعلى وعلقه في مكان ظاهر في سوق كبير  
واتاح له بذلك ان يشرف على الناس ويتأملهم زمناً كافياً .

هو - قد اقتنعت ياسيدى بأن فرعكم انبل واشرف وبودى لوتسمحون

لى بطائفة قليلة من الاسئلة عن شخصكم الكريم مخافة إن تنسوه فى وسط  
هذا العباب الطامى من المجد التليد .

فلم ارتح إلى هذه المقاطعة التى لا شك عندى فى ان الحسد هو المغرى  
بها . كنت اريد ان اغمره بسيل من هذه الحقائق التى ترفع الراس وتطيل  
القامة غير انى قدرت ان الفرصة لم تضع وانها لا محالة سانشح فقلت  
له تفضل .

هو — كم عمرك ؟ إذا جاز ان اتقدم إليكم بمثل هذا السؤال .  
انا — سيكون فى اغسطس المقبل — فى ٩ اغسطس —  
عشرين سنة .

هو — كيف ؟ عشرون سنة فقط .

انا - نعم ؟ .

هو - وهل تسمح لى ان اسألك فى اى سنة ولدت ..

أنا - إذا لم تخفى الذاكرة فانى ولدت فى سنة ١٧٩٠ ميلادية .

هو - ١٧٩٠ ؟؟ كيف يكون هذا ممكنا ؟

أنا - لا أدرى وهذا بعض ما أعجب له ؟ .

هو - ألم تقل أن عمرك عشرون سنة ؟ .

أنا - نعم .

هو - ولكن عمرك - إذا حسبناه من تاريخ ميلادك - يكون

مائة وستا وثلاثين سنة فكيف تعلق هذا التفاوت ؟ .

أنا - لا اعلمه . وكثيراً ما عجبت له . وإذا كان هناك تفاوت فلا شك  
ان مرجعه إلى انه فاتني ان ادون هذه الحادثة السعيدة ساعة وقوعها .  
ورأيت فرصتي سانحة فاغتنمتها لأكر إلى مجد اجدادى فقلت .

انا - ازيد على ذلك انى ولدت بغير اسنان ، فأنا لهذا افضل كثيرين  
من الآدميين غير ان هذا حرمنى القوت زمنا طويلا فلبثت لا اطعم غير  
اللبن وهذا تعليل ضآلة جسمى واضطرارى بسبب ذلك إلى القعود عن  
المعالى التى كلف بها اجدادى الاماجد من امثال ابن ابى سعيد المازنى .  
فقد ولد بأستانه كاملة وكان مبطانا اكلولا وخلا عظيم مرهوب الجانب  
وعرف له الخليفة فضله فاخصه بغرفة فى قصره واقام له عليها اثنين  
من الحجاب وامرهما إلا يدعاه يحشم نفسه حتى الخروج من الغرفة وان  
يقوما هما بخدمته فبقي فى هذا القصر مكرما مبجلا مخدوما تسعة عشر عاما  
ومنهم ايضا ابو هلال بن . . .

هو - مهلا يا سيدى فان الرجوع إلى هذا معناه الشك فى صدق  
ما جاهرت به من اقتناعى بكرم محتدك ، فهل تسمع لى بأن اسألك  
متى اشتغلت بالصحافة ؟

انا - فى ١٨١٩ .

هو - كيف ؟ وعمر ك كما تقول دون العشرين ؟

انا - لا ادرى . وهذا ايضا بعض ما يحيرنى .

هو - ان هذه التواريخ لا امل فى اصلاحها على ما يظهر فلنسأل عن شئ  
آخر ، هل لك اخوة ؟

فاغتتمت هذه الفرصة لاطير له صوابه .  
أنا - دعني أفكر ، نعم ، كان لي أخ . . . في الرضاعة .  
هو - ماذا تعني ؟  
أنا - أعني أنه كان ابن مرضعتي .  
هو - وهل مات ؟  
أنا - لا أدري ؟  
هو - يتأثر - اختفى فلم تسمعوا عنه خبرا ؟  
أنا - كلا ! بل دفناه .  
هو - دفتموه ؟ هل تريد أن تقول أنه دفن دون أن تعلوا أحى  
هو أم ميت ؟  
أنا - كلا ! فما من شك في أنه كان ميتاً .  
فضحك وقال : مات ودفن فاذا تريد ؟ أظن أن المسألة واضحة  
جداً فاذا يحيرك فيها ؟  
أنا - أظن أن المسألة واضحة ؟ ربما . أما أنا فأعالفك .  
هو - لماذا ؟  
لأنني لا أدري إلى هذه الساعة أينما الذي مات أنا أم هو ؟  
أفهمت الآن ؟  
فانطلق يقهقه كأنما كان في جوفه رعد مخزون وصبرت عليه  
حتى فرغت الذخيرة ثم قلت له بلهجة غريبة مرعبة :

«هل تستطيع - إذا قصص عليك القصة وأفضيت إليك بالسر أن تنبئني  
عن يحدثك الآن أهو المازني أم من كان ينبغي أن يكون خادمه وإن  
كان أخاه في الرضاعة؟

فارتبك وبدت عليه دلائل الحيرة والدهشة وعلا وجهه السهوم  
فاغتبطت وأقسمت لأزيدنه ارتباكاً ولاطيرن من رأسه هذا الولوج  
بتراجم الناس فقلت ؟

«اسمع يا صاحبي ، لقد كان لمراضعتي طفل في مثل سني وكان شديد  
الشبه بي ، وكان يلبس من ثيابي فيزيد الأمر بيننا إختلاطاً وما أكثر  
من كان يتوهم أننا توأمان وكثيراً ما كان يقضي هذا الولد لياليه في  
غرفتي على أنه أنا بينما أكون أنا نائماً مع الخادمة ، وهكذا نشأنا ، فشبهت  
أنا على أنني المازني وشب هو على أنه الخادم وقد يكون الأمر على خلاف  
ذلك ، وما يدريني ويدريك أن الأمر لم يختلط على ظنري وهي تغسلنا  
في الحمام ؟ ولا أطيل . كبرنا نحن الاثنين ، المازني وخادمه محمد ، أو محمد  
وخادمه المازني ، فما أدري الآن أنا من على التحقيق ؟ كبرنا إذن وسرق  
الخادم مرة من الجار لحبس لذلك بضعة شهور لا أذكر عددها ، وعسى  
أن يكون المازني هو الذي سرق وحبس خادمه ، ربما ، ولكن هذا  
لا قيمة له ، فكثيراً ما كنت أنا أخطئ\* ويضرب خادمي عنى أو بعبارة  
أخرى ربما كانت اصح واقرب إلى الحقيقة ، كثيراً ما كان هو يخطئ\*  
واضرب أنا عنه - هذا إذا ذهبنا نعتبر الخلط الذي لعله اصاب عنوانينا  
أو اسمينا .



هو - ارجو المَعذرة ، ولكن هل من عادة المصريين ان يضربوا  
خدمهم إذا اخطأ ابنائهم ؟

انا - لست اعلم ان هذه عادة احد من المصريين ، ولكنى اريك  
بعض آثار التشابه بينى وبين الخادم واحتمال التصاق الاسم بغير  
صاحبه .

هو - ولكنى لا افهم ...

انا - ستفهم كل شيء إذا تريت قليلا ، ولم يقلع الخادم عن  
السرقه والتلصص ، او لم يكف المازنى عنهما فإ يعلم الحقيقة غير الله  
ومن لعله خلطنى به فى الحمام ونحن طفلان رضيعان ... فألف الاجرام ،  
واتفق فى ليلة انه كان يسطو على بيت فأحس به السكان ففر إلى السطح  
على نية الوثوب من سطح إلى سطح وهكذا حتى يهتدى إلى طريق مأمون  
للهبوط إلى الأرض ، وبينما كان ماشياً على سور احد السطوح زلزلت  
الأرض فهوى ومات والآن نبئنى إذا استطعت أين الذى مات ؟؟ اهو  
انا ام هو ؟ اهو المازنى ام خادمه . ؟

هو - الم يكن هناك شيء - علامة مثلا - تميزكما ؟

انا - وإذا تذكرت ما قصصته عليك عن آبائى وأجدادى الأماجد  
وما كانوا يتوخونه جميعاً من الأساليب لاكتساب رزقهم ، وبعبارة  
أخرى أخشى اذا تذكرت أنهم كانوا جميعاً بفضل الله فتناكس وقطاع  
طرق ولصوصاً ألا يكون الأقرب إلى المعقول والأشبه أن يكون الخادم  
المتلصص هو المازنى واكون انا الذى وقعت من فوق السطح ومات ؟

هو - لا انكركوة منطقك ولكنى اسألك مرة اخرى - الم تكن  
م علامة تميزكما ؟

انا - هل تحسبني ابله ؟ وفيم اذن قلت لك ان للسألة سرآ ؟ .  
فأبرقت أسارير وجهه ولمع السرور في عينيه وقال :

لا احسبك تضن على بحل هذا اللغز بعد ان اوجعت راسى بعقده ؟ .  
انا - كلا ! لقد كان هو اسود زنجياً وانا كما ترى اسمر ؟ ؟  
فهنض وانحنى وقال : « اشكرك » .

ولم ار بعد ذلك وجهه .

—•••—

## اللغة العربية بلا معلم

وقفت مرة بباب مكتبة أتأمل معروضاتها، من وراء الزجاج فأخذت عيني كتيبا صغيراً يعلم الأجانب (اللغة العربية بلا معلم) فراعنتي هذه الجراة، وتمثل لحاظي ما يكابده الأساتذة من العناء في تدريس هذه اللغة، بل مانعانيه نحن الذين نزعم أنفسنا أدباء وشعراء من البرح والجهد ولا أطيل — اشتريت الكتاب بشمن ياهظ ثم انتحيت ركنا في قهوة ورحت أقلبه فإذا هو لا أكثر من ألفاظ ومحادثات باللغة الانجليزية وما يقابلها باللغة العربية، فتحسرت على ما بذلت فيه، وساءلت نفسي — ماذا أصنع به؟ كيف أعوض خسارتي؟

والله أكرم من أن يضع علي فقير مثل ماله إذا صح أن تسمى القروش مالا. فألهمني أن انتزع منه متعة لا أظن مصريا غيري حلم بها أو طمع فيها. ذلك أني فرضت - جدلا - أني (مالطي) واتخذت هذا الكتاب مرشداً لي وقلت أتقيد بجمله وعباراته في المحادثات التي اضطر إليها في تجوالي في المدينة.

ولما كنت (سائحاً) وشوارع المدينة متداخلة تضل الغريب فقد وجب - طبقاً لمشورة الكتاب - أن أركب (عربة) وإن احتمل هذا الترف الضروري، ففتحت الصفحة الثانية عشرة حيث الحديث مع سائق

العربة ودنوت من ( الموقف ) واشرت بعضاً اشترتها خصيصاً لهذه المناسبة السعيدة وصحت بلسان ملتو (أرجي) فاهلب السائق جواده وعدا إلى بهما ، فلما صار عندي عدت إلى الكتاب استوحيه الجلة الثانية التي ينبغي أن تتلو النداء، ثم رفعت إليه رأسي وقلت « روه هات أربه » .

فكانى لطمت الرجل على وجهه . فانطلق يمتطى وابلا من الكلام لم أفهمه كما هو المفروض إذ كنت غريباً عن هذه الديار ولكنى تلينت من لهجة الرجل وإشاراته إن المعاني جميلة جداً وإن جملى راقته كما لم يرقه شئ في حياته .

وعدت إلى الكتاب استمليه الجلة الثالثة لعلها تحل الاشكال فقلت :

« يا أرجي انت فاضى ؟ »

فرماني بنظرة مغيط محقق لم أدر ما مسوغها ، ثم رفع طرفه وكفه إلى السماء ، ثم صاح بالناس فالتف حولي منهم اثنان كلني أحدهما بالفرنسية فبرزت له رأسي غاطبني باليونانية ، فظلت أهر له رأسي، فخرب الثاني الإيطالية فأشرت له بأصبعي أن لا تخفت أن يطول الأمر فرددت عليه بالانجليزية فاستغرب وجعل يرفعي ويخفضني بعينه. وأوجز فأقول - اني حسا للنزاع ركبت وقلت للسائق - بعد أن تجاوزت عن جملتين من الكتاب - طيب اذهب بي إلى المطة .

فانطلقت العربة ، وبديهي اني كنت أؤثر مكانا آخر ولكنى كنت مقيداً بالكتاب ، فلما انتهينا لم أنزل وصحت به - تقلا عن مرشدى - « كم تريد أجرة لك » .

وكان ينبغي أن يقول - طبقا للكتاب - «واحد شلن» ولكنه طلب نصف ريال فدهشت وبحث في غلاف الكتاب عن تاريخ طبعه فألفيته ١٩٢٦ ، فقلت لنفسى لعل الأجور ارتفعت في هذا البلد بعد همدور الكتاب ، وكان على أن أناقشه كما يحتم الكتاب فقلت : « لا هذا كثير ، وكان ينبغي - على ما رسم الكتاب أن يكون رده على ملاحظتى » كما فى التعريفة ، غير إنه بدلا من أن يفعل ذلك مضى يشتمنى ويسبى ويلعن لى أبائى وجدودى وهو أمن مطمئن إلى جهلى بلغته البذيئة على الأقل . فلم أر مناصا من أن أعد لعناته مرادفة لارد الواجب ونقلت له من الكتاب « ستة كروش أبيض بس »

فخصبى بملء صحراء من اللعنات والشتائم ثم قال : « هات بقى » . ففهمت هات لأنها من الكتاب وتجاوزت عن « بقى » على اعتبار أنها على الأرجح كلمة شكر أو دعاء وناولته القروش الستة البيضاء . وإذا به يشب إلى الأرض ويجذبى من جيب سترقى ويصب على من السباب ما يكفى شعباً بأسره جيلا كاملا . فما أشد اسرافه قاتله الله . وتنازعنى الضحك والغضب والخوف ، ولكننى ضبطت عواطفى وصوبت عينى إلى الكتاب ثم رفعت له وجهى وقلت : « ودينى » الكشلة (١) . فقال « الكشلة ؟ يا خبر أسودياناس . تعالوا انظروا هذا يريد أن يدعى

---

(١) الكشلة عامية ومعناها المستشفى . ولا تكاد تذكر الا مقرونة فى الذهن بالياس من حياة المريض .

انى كسرتة . . . وهكذا وهكذا مما يستطيع القارىء أن يتصوره ولا حاجة بنا الى وصفه .

ولم أدع أنا شيئاً من هذا ، ولا خطر لى ان أفعل ، ولكنه الكتاب استوجب منى أن أذهب إلى القشلة بعد أن حملنى إلى المحطة ولا موجب لهذا ولا ذاك ولكن هكذا شاء فكان ما اراد فرايت الاحزم إن انتقل إلى الجبله التى تلى « القشلة » فقلت « طيب اعمل فسهه فى البلد » .

فلم يدرايشتم ام يضحك . وبعد ان تأملنى قليلا قال :

« يابن . . من القشلة للفسحة ؟ »

وبينما كان هو يصعد إلى مقعده كنت انا اترجل . فالتفت إلى مذهولا ، فانقذته القروش العشرة وقلت له « لا مؤاخذه لقد كنت امزح ، فخار كيف يختذر عن شتأمة ولعناته . . »

سأجرب فضل الكتاب فى نزوة اخرى استخلاصاً للحق .

## أشق المحادثات

•

محادثة الصم أشق شئ بعد محادثة النساء . إذاصح أن الرجل يتحدث أو متاح له فرصة الكلام وهناك امرأة . والفرق بين الحالتين - أعنى بين محادثة الصم ومحادثة النساء - أن المرء في الحالة الثانية لا يزال يفتح فيه ، كلما توهم أن الحظ قد أسعفه بفرصة ، ولكنه فيما أعلم لا يجاوز التأناة أو الفأفة أو غير هذه وتلك بما هو منهما بسيل ، ولا يكاد يزيد على دأأأ ، ثم لا يرى معدى عن اطباق فيه ، وهكذا فلو أتيح لك أن تراه وهو يفتح فيه ثم يطبقه مرة بعد أخرى - دون أن تعلم أن هناك امرأة تتحدر كالسيل - لظننته يتشاءب من فرط الملل والوحدة ، وشر ما في الأمر أن المرأة لا تنفك تنكر على الرجل صمته وتستعجنه منه أو تعده دليلا على أن في نفسه شيئا من ناحيتها . وليس من الميسور أن يقول الرجل منا لأمه أو زوجته أو أخته أو لاية سيدة محترمة أن علة صمته إنها هي لا تكف عن الثثرة . كلا هذا لا سيل اليه فان عاقبته أوخم ، فهي ورطة كما ترى لا مخرج منها .

فرض الكلام معدومة أو هي في حكم المعدومة ، والمصارحة مستحيلة والصبر على اللوم والتأنيب والاثام عسير ، فاذا يصنع المرء ؟ توهمت

مرة أنى اهتديت إلى تعليل للصمت المفروض على المستهجن منى فى وقت  
معا . فقلت لمن كانت تلومنى :

« ألا تعلين لى مدرس ؟ »

قالت : « وما دخل هذا ؟ »

قلت : « إذا أكثر من العمل بيدك ألا تتعبان ؟ »

قالت : « نعم ذلك .. »

قلت : « وإذا مشيت بضعة أميال ألا تتعب رجلاك ؟ »

قالت : « هذا صحيح ولكن .. »

قلت : « تملى ، وإذا تعبت يداك وأرجلاك فكيف تريحينهما ؟ »

قالت : « بالكف عن العمل أو المشى »

قالت : انتهينا . أنا مدرس وليس لى من عمل طول النهار لإدارة  
لسانى فى حلقى ، فمن حق هذا اللسان أن يستريح بعد الجهد الشاق  
الذى بذله .

فاقتنعت يومئذ ، وبعد بضعة أيام كنت جالسا معها ، صامتا كما هو  
مفهوم بالبداية فدننت منى وقالت :

« اللسان يتعب ؟ اليس كذلك ؟ »

فأدركت أن وراء هذا السؤال أمرا ، وقلت :

« نعم . شأنه شأن كل عضو آخر ،



قالت : « فما لفلاذه المعللة لا تكف عن الكلام في ليل أو نهار ؟ »  
والخلاصة انني اشك في ان آدم هو الذي سمي الاشياء . وما اظن إلا  
ان حواء هي التي يرجع اليها الفضل في ذلك ، فما احسبها تركت له فرصة  
يفتح فيها فمه ولا سيما إذا ذكرنا ان آدم كان الإنسان الوحيد الذي  
كانت تستطيع ان تكلمه في الجنة ، وأنه لم يكن معها سواه فكيف استطاع  
ان يجد الوقت اللازم للتفكير فيما يناسب الحيوان والنبات من الاسماء ؟  
بل ما اظن ان آدم قد اكل من الشجرة المحرمة لأن حواء اغرته او لأن  
الشیطان وسعه ان يزين ذلك له ، بل لأن الأكل من هذه الشجرة له  
عواقبه ، ومنها الموت وانتقاء الخلود وتلك وسيلة للخلاص يمكن ارتقاها  
مع الصبر . فما اعظمها من تضحية يجب ان نذكرها لا بينا الشيخ المسكين !



اما محادثة الصم فشيء آخر مختلف جدا . هي صياح من جانب وبعثرة  
من الجانب الآخر ، واعني بعثرة المواضيع التي يمكن ان يدور عليها  
الحديث زمناً معقولاً إذ لا سبيل إلى حصر الذهنيين في موضوع واحد  
وقته . اعني قتل الموضوع . ولنضرب مثلاً :

تضع يدك إلى جانب فك وتصبح في اذن صاحبك .

« متى اشتريت هذه النظارة »

فينظر اليك اولا كأنما يريد ان يقرأ في عينك او في وجهك كله  
ما سمع ثم يقول بصوت لا تكاد تسمعه ولعله يحسب انه يصيح مثلك  
« أي نعم وزارة المعارف »

فتصيح مرة اخرى وتصنع من كلتا يديك بونا لأذنه  
« النظارة . النظارة . النظارة . انا اسأل عن النظارة »  
فيقول « آه . ربما . ربما . فان الازمة حقيقة حادة »  
ويخطر لك ان تغير الحديث فتصب هذه الصيحة في اذنه او تطلقها  
في الهواء - سبان .

« هل قرأت مقالتي الأخيرة ؟ »  
فيقول « لعنة الله عليها لقد كادت تخنقنى . وقد غشنى من مدحها لى »  
فتبدى امارات الدهشة وتلعنه بصوت عادى فيقول :  
« لا تعجب فأنها جهة مشبعة بالرطوبة والبعض فيها كالنحل كلا .  
لقد شبعت من المنيرة وسأنتقل إلى جهة اخرى »  
وهكذا . تنتقل من موضوع إلى موضوع بلا فائدة حتى يبح  
صوتك . والنساء شر لا بد منه وكثير ما تنسيك حلاوته ومرارته ولكن  
المرأة الصماء .. ؟ هنا يحسن السكوت .

## من ذكريات الصبا — بين رجال الليل

•

وقعت مرة على عصابة من اللصوص ، وكنت في ذلك الوقت صبياً في الثالثة عشرة من عمري الذي أراه ينوي أن يطول بلا مسوغ ، وكنت عائداً من مكان قريب من مسجد عمرو إلى الإمام عن طريق الصحراء الفاضلة بينهما ، وكان الليل قد أمسى وانتشر الظلام على الأرض، ولم يكن شارع دكتشنر ،<sup>(١)</sup> قد شق وعبد فكان السارى لا يجد ما يهدي به في هذه البيداء المبسطة سوى النجوم إذا كان ممن يستطيعون أن يميزوا بينها. وكنت أعرف من الكتب أن هناك ددين ، واحد منهما أكبر من زميله ولكني لم أوفق إلى رؤيتهما في هذا التيه السماوي إلا منذ عهد قريب ، وكان شكى يومئذ في وجودهما عظيماً ، ولكنه شك لم أكن أدعه يند عن صدرى إلى لسانى ولا سيما إذا كان أحد من المدرسين حاضراً ، تلك جرأة كنت قد تعلمت ضبطها وكتمانها بعد أن جرت على ما لا أزال — كلما تذكرت — أرى يدي ترتفع إلى خدى . وشرح ذلك إنا كنا نطالع كتاباً نسيت اسمه ، فرت بنا هذه الجملة المشهورة د أن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه، وأخذ المدرس يضرب الأمثال ،

---

(١) شارع ممد من الإمام الليث قريباً من عين الصيرة ، إلى مسجد عمرو ويمر بمدينة الفسطاط التي كشف عنها حديثنا .

فكبر في عيني هذا « المضطر » الذى يبلغ من مخاطرته ألا يركب إلا الصعب « ويتعمد ذلك ، ولا يعبأ شيئاً بالأهوال التى يقذف بنفسه عليها وأعجبتنى هذه الشجاعة وملأت نفسى إجلالا له ، فاشتقت أن أراه وعانيت من الحاح هذا الشوق أشد البرح ، فلم يكد المدرس يفرغ من الشرح — وكنت فى شغل عنه بتصور « المضطر » وتمثل « الصعب » الذى يركب — حتى وثبت عن الدرج كالقذيفة وقلت بلا استئذان :

« أفندى ! . أفندى ! . »

فتخاضى المدرس عن مخالفتى للأصول المرعية وقال لى وعلى فه ابتسامه الراضى عن نفسه المطمئن إلى بلوغ غايته من الايضاح والبيان .  
« نعم يا عبد القادر ؟ »

فجازيته ابتساما بابتسام ولم أكن أقل منه رضا عن نفسى وفرحا بالانفراد — دون بقية التلاميذ — بهذه الرغبة الملحة ، واعتباطاً بشجاعة النهوض بلا استئذان للأعراب عنها فقلت :  
« أين يعيش المضطر ؟ » .

فتجههم وجهه وانزوى ما بين عينيه وطالعتى أمارات غضب حسبها دلائل حيرة . ، فأسفت لتقدى بهذا السؤال واحراجى أياه به أمام التلاميذ وقلت لنفسى : أن معلنا هذا معذور إذا جهل مكان « المضطر » واستعصى عليه الجواب ، وإني له أن يعرف — وهو رجل عادى — ذلك « المضطر » الذى لا يبالى بالصعب ويأبى إلا أن يركبه ؟ ؟ وانتهت

من هذه المناجاة ، التي يظهر أنها طالت أكثر مما ينبغي ، على التلاميذ يدفعونني وعلى المدرس يصيح بي .

« أقول لك تعال هنا ، ألا تسمع ؟ » .

فلم ادع الابتسام وذهبت إليه وأنا أقول لنفسي « سيعاتبني الآن على تسرعى وعدم انتظاري انتهاء الدرس لأسأله على انفراد وسيهمس في أذني عتابه فأهمس في أذنه اعتذارى وانتظر » .

« ماذا تقول ؟ ، بصوت عال .

ولم يكن هذا ما توقعه فارتبكت ، وحدثت نفسي أن هذا مأزق ظريف . أرجو أن أنقذ الرجل وبأى هو إلا أن يغرق ، ورفعت له وجها يستطيع أن يقرأ فيه إذا لم يكن أعمى ، أنى آسف وأنى مدرك خطئى وكان عليه أن يخفض صوته قليلا ، ولكنه لم يحفل رجائى وتوسلى فصرخ مرة أخرى :

« ماذا تقول ؟ أجب » .

فالتفت إلى التلاميذ كالذى يريدان يقول — أسمعون هذا المجنون؟ لست ملوما لذن وأنتم شهودى . ولكنى لم أكد أرد وجهى إليه حتى خطر لى كوميض البرق انه لعله لم يسمع سؤالى فهو يجمل مداه ومبلغ ما تنطوى عليه من الخطر على سمعته ومركزه بين التلاميذ . واستولى على هذا الخاطر فسرني أن فرصة الانقاذ لم تضع ، فشبت عن الأرض ورأيت يمينى تمتد إلى كتفه لتدنو باذنه إلى فنى ، وإذا بي على الأرض

أقيسها إلى آخر الفصل دأثراً حول نفسي ومتخذاً رأسي محوراً ، وقعدت أبكي وبني من الغيظ والحقد أكثر مما بي من الألم ، ولكن المدرس كان قد لحق بي فكتمت الغيظ ورفعت طبقة البكاء فجأة حتى صار اعوالا ، لجعل يصيح بي .

« اخرس يا كلب اخرس . اقول لك اخرس » .

ويشفع كل كلمة بلطمة او لكمة فأزداد اعوالا .

ويظهر ان هذا الصخب نبه « الناظر » - وكانت غرفته قريبة منا - فدخل علينا وراى المدرس متلبساً بجريمة الضرب - وهي محرمة - وكان الناظر رجلاً طيباً ساذجاً يخرج الكلام من انفه اخن اغن بمطوطالينا ، وكان صديقاً لأبي - اعنى قبل موته - وحديث عهد بالكوية ، وكانت لي عليه دالة بفضل تملق « بكويته » لا بفضل صداقته لأبي - وكان التلاميذ يعرفون لي هذه الدالة فاذا ارادوا شيئاً بعثوا بي إليه . اوفدوني إليه مره فقلت .

« يا سعادة إلبك . نريد ان تاذن سعادتك لنا في الذهاب إلى حديقة الحيوانات » فاعتدل في مقعده وهز راسه وهو يقول .

« حونات . حونات ايه يا امنى . اسد فك السلاسل نهش عيل منكم نبقى نقول يا مين ؟؟ يا امنى عبد القادر لا »

فاقتنعت وأقتنع التلاميذ بان الذهاب إلى حديقة الحيوانات خطر ليس بعده خطر . ولا أذكر أنى دخلتها إلا بعد أن صرت مدرسا في المدرسة السعيدية الثانوية وعلى مقربة منها ، وإلا بعد أن تحققت أن الاسود

تجلس في أفاص ولا تربط بالسلاسل — أن صح أنها كانت تربط —  
كما كان الحال على عهد ناظرنا طيب القلب ...

وأعود إلى المضطر ، وقصتي معه فأقول بإيجاز ؛ أن المدرس على الرغم  
من أعتدائه على وعلى القانون ممثلاً في شخصي المحطم المجرح زعم أني هيمت  
بصفعه . يا للكذب ! . وأصر على وجوب طردى من المدرسة . ولم تجدني  
دموعى ولا ما أقسمت من الإيمان على أنى لم أرتكب هذه الجريمة  
التي لم تخطر لي على بال قط ، وأنى ما أردت إلا الاستفسار عن مكان  
المضطر ، لأراه ، وشهد التلاميذ الملاعين أنى رفعت يدي إلى كتف  
المعلم ، فأيقنت أنى ضائع لا محالة ويئست فكففت عن البكاء ، وقلت :  
« أتلقى هذا الظلم بما يستحقه من الاستمزاز والاحتقار . » وجرنى الناظر معه  
إلى غرفته وشرع يسألنى فى هدوء وعطف فسردت عليه القصة على  
حقيقتها ورأيت فرصتى سانحة فاغتنتها وأكثر من « سعادة البك » ،  
وأضفت من عندى كذبة صغيرة فزعمت أن المعلم شتم أبى ، وأبى كما يعلم  
« سعادة إلبك الناظر ميت . » وفعل التلق والأكذوبة فعلهما الذى توقعت  
فنهض سعادة ألبك وقال لى بصوت خفيض « أسمع يا أمنى أطرذك من باب  
تيجنى من باب . فاهم ؟ . »

قلت « نعم يا سعادة البك » فتركنى وخرج وأسر شيئاً إلى فراش  
بينما كنت أتوئب فى الغرفة وأطوى يدي ورجلى فى الهواء من فرط  
الفرح ، ثم نادانى فخرجت وبعد قليل حضر المدرس أيضاً فضى بنا جميعاً  
إلى الباب الكبير — وكان هناك باب آخر — وقال : ؟

« يا عم محمد . افتح البوابة . أخرج من مدرستي . أمش من هنا .  
مبسوط بقى يا عم الشيخ ... » هذا للدرس .

ولا يحتاج القارئ أن أقول له انى درت ودخلت المدرسة من الباب  
الثانى وأن المدرس وجدنى جالسا على درجى فى اليوم التالى ولكن القارئ  
قد ينقصه أن يعلم أن المدرس عاد إلى الشكوى فقال له الناظر: « وماذا  
أعمل إذا كان هؤلاء الأولاد كالعفاريت ربما كان قد هبط إلى فناء  
المدرسة من فوق سطوح الجيران » .

والآن إلى اللصوص بعد هذا الاستطراد الطويل الذى دعت  
إليه المناسبة العارضة : مناسبة الذكرى الاليمة .

لم أزل أغرس قدمى فى الرمال واقتلعتها — فما يسمى المشى فى هذه  
الصحراء مشيا إلا على المجاز — حتى دنوت من عين الصيرة <sup>(١)</sup>  
فابصرت اشباحا على ضوء نار ، وكان الليل دامسا فلم استطع أن أكون  
على يقين من مكان القوم ، وخفت ان أنا مضيت فى طريقى أن أقع  
عليهم وأنا لا أعرف أى ناس هم ، وكنت أسمع أن هذه الرقعة الجذباء من  
الأرض مأوى اللصوص وعش الفتاك ، فقلت أميل عن الطريق حتى أبلغ  
« عين الصيرة » ، فأنحدر إليها ثم أعود فأصعد على حذر ناشراً أذنى فى  
الليل المحيط مرهفا سمعى لكل صوت ونأمة عسى أن افلت ، فإذا تعذر

---

(١) عين متفجرة بماء أسود يستحم فيها مرضى الجلود .



الافلات عدت فوسعت الدائرة . فلما كاد رأسى يبلغ مستوى الطريق  
المشرف على ( العين ) إذا بالقوم تحت عيني .

فأسرعت ورددت رأسى وتواريت خلف الصخرة التى كانوا  
جالسين اليها من الناحية الأخرى . وجلست أفكر وقد شاع فى الرعب  
وكادت عيناى تخرجان . غير أنى لم البث أن سمعتهن يغنون ويتضحكون  
فعاد إلى بعض ماعزب من الطمأينة ، وتشجعت فدنوت من حرف  
الصخرة وجعلت أبرز من وجهى بقدر وأخفى بقدر ، فالفيتهن على بضعة  
أمتار— نحو عشرة ، منهم الضخم الهائل الانحاء والطويل والهزيل والقصير  
والبدن وكان أحدهم يغنى والباقون يصخبون حوله ويضحكون ويتندرون  
عليه ويركبونه بالذع أنواع المجون . ويظهر أن هذا استفزه واحتقه  
فانتفض عن الأرض ومضى يلعنهم ويقذفهم باقبح النعوت فهموا به جميعاً  
ولكن رجلاً ضخماً من بينهم حسبته فيلا صغيراً صدمهم وأهاب بهم أن  
( دعوه لى فانه طعاعى الليلة )

فسرت رعدة خفيفة فى بدنى ومططت وجهى لعلى أرى ذيله وراه .  
وتناول الرجل عصا غليظة تبلغ المترين أو قراب ذلك وجعل يتوثب فى  
الهواء ويلوح بها فى كل ناحية ويهوى بها على الرءوس حتى إذا كاد يطيرها  
عن اكتافها أو يحطمها حرك يده فبرت العصا فوقهم تقطع الهواء وتقول  
( فووو ) والرجل يقول فى أثناء ذلك كلاماً كهذا - دعوه لى . أنه  
طعاعى ! ألا تروننى ؟ انظروا إلى وراعى أنى أنا الذى يسمونه الموت  
الوحى والخراب العاجل ! أى العاصفة وأبى الزلزال وأختى الكوليرا

أنظروا إلى وراعوني . انى أفطر بقافلة وبرميل من البلح<sup>(١)</sup> وإذا مرضت  
كان حسبي ملء سلة من الافاعى . افنت الصخر بنظرة وأخرس الرعد  
بصيحة . وسعوا لى وسعوا لى . الدماء شرابى وانين القتلى موسيقاى . انظروا  
إلى وراعوني وعلقوا أنفاسكم فانى موشك أن انطلق ،

فعلقت أنا أنفاسى وقد ملأ الرعب والاعجاب والسرور قلبى - الرعب  
بما سمعت ورأيت ، والاعجاب بقوته وحذقه ، والسرور بما أنا موشك  
أن أراه بين المتنازلين ، وحدثت نفسى أنى ساشهد منظرا لن انساه  
ماحييت ، منظرآ ينطوى - من دواعى الاعجاب والاجلال - على أعظم  
وأهول مما ينطوى عليه ركوب ذلك ( المضطر ) للصعب من الامور

ثم نهض الذى كان يغنى وكانوا يستخرون منه ، وفى يده ( نبوته )  
لا كما نهض نحن أبناء آدم ، بل كما يطير النسر عن الصخرة ، وهوى  
على نبوته قائما على الأرض وهو معتمد عليه ببطنه وناشر يديه ورجليه  
فى الفضاء طلبا للاتزان ، ثم وثب بين صيحات الاعجاب وانطلق يضرب  
فى الهواء بنبوته كما صنع زميله ، ويقول كلاما كهذا :

« احنوا ظهوركم لركوبى ولا تنظروا إلى بعيونكم فتذهلوا أنى احك  
جلد رأسى بالبرق ، وانيم نفسى بالرعد ، وأروح على وجهى بالعواصف ،  
وإذا ظمئت مصصت السحاب وإذا جعت سار القحط فى ركابى . واتقوا أن  
تنظروا إلى فتبهتوا ١١ انى أحجب الشمس بكفى واقد من القمر قطعة  
فينتهى الشهر ، وارتع فتندك الجبال : احنوا الظهور لآبى الخوارق ! ،

---

(١) شراب يسكر يصنعونه من البلح

فصارت روحى فى قمى . ونهض الاول وذهبا يتوثبان ويضربان  
الهواء بنبوتيهما ويصرخان كالشيطان ويتسابان ، بأوجع الكلام حتى غلى  
الدم فى رأسى أنا ، وأيقنت أن الدماء ستكون أمامى بركة . ثم طير الاول  
عمامة الثانى بنبوته فقلت قد صرنا إلى الجد الرائع فالتقطها الثانى بنبوته  
أيضا . وضرب عمامة الاول فأطارها عن رأسه فوقعت قريبا منى ، فجرى  
الاول فى أثرها وتناولها وقال « لا بأس » دقة بدقة والبادى أظلم ، ولكن  
هذا لن يكون آخر ما بيننا فخير لك أن تكون على حذر وأن تجنب  
طريق فانى لا أصفح ولا أرحم وسياتى اليوم الذى تكفر فيه عن ذلك  
بدمك ،

فقال الثانى - أبو الخوارق - أنه مستعد لذلك اليوم وأنه ينذر الاول  
من الآن ، فانه لن يستريح ولن يهدأ له بال الا اذا خاض برجليه فى دمه ،  
وأنه يدعه الآن اكراما لأولاده الصغار . وهم كلاهما ان يذهب فى طريق  
وكانا لا يزالان يتقاذفان بالوعيد والشتائم ، ولكن رجلا قىء الجسم  
بالقياس إلى هذين الفيلين قفز وصاح بهما :-

« قفا لعنة الله عليكما من جبانين ، وإلا اطعمتكما هذه العصي » .

ولم يكذب فقد جذب كلا منهما بذراع ، جوبه ، اطعمه التراب ثم  
اوسعهما ركلا برجليه حتى اشبعهما تمريناً وضربا ، ولم تمض دقائق حتى  
انقلبا كلبين ذليلين عند قدميه . فدوى الفضاء بضحكات الجالسين  
وتهكماتهم وعانيت الامر من كتمان الضحك .

وبدأ لى ان قد آن ان افكر فى الرجوع والهروب من هذه الجيرة

ولكن احد الذليلين . واحسبه ابا الخوارق قام ليغسل وجهه ويديه في العين فراني فوقف وصاح : هوا من هذا ؟ ووثب الباكون فكانوا حولي في اسرع من لمح البصر ، وقبل ان افكر في جواب . وتصايحوا بي فقال الاول :

- ماذا تفعل هنا ؟ قل والاغرقناك في العين

وقال الآخر :-

- شدوا رجليه ومزقوه !

وقال ثالث :

- لص بطربوش اهاها ! تعال نعلمك : هاتوا الفرشاه لندهن له وجهه باللون الازرق السماوى من فرعه إلى قدمه فضحكوا جميعا وقالوا : فكرة بديعة غير ان الرجل القمى الذى مرغ الفيلين فى التراب صدم جميعا وقال :

- انه ليس الا طفلا ؟ ارفعوا عنه ايديكم ! ويمينا لادفن من يلبسه .

فوضع احدهم الجردل وترك الفرشاة تهوى إلى الأرض وتتعفر بترابها وقال المنقذ :

- تعال إلى النور لنرى ماذا جاء بك إلى هنا ، اقعد ! كم لك هنا؟

قلت : « حقيقة واحدة . »

قال : « ما اسمك ؟ »

ولا ادرى لماذا لم اقل اسمى ولا لماذا أجرى لسانى بما جرى به  
ولكن الذى ادرى به انى قلت بلهجة الجاد « ابو الخوارق »

فانفجر القوم ضاحكين ما عدا سمي الذى استعرت منه هذه التكناية  
ويظهر ان هذا راق منقذى . فقال : « هذا حسن ولم اكن انتظره من طفل  
مثلك . » ولكنك يا صاحبي كذبت على حين قلت انك هنا منذ دقيقة  
فقل الحق ولا تخف فلن يصيبك سوء »

فأخبرته الحقيقة وتعمدت - وقد اطمأنت نفسى لهذا الوعد - أن ما  
سمعت ورأيت من الفحلين الجبانين اللذين مرغهما منقذى فى التراب ، لأن  
احدهما هو الذى توعدتى بالإغراق واثنيهما هو الذى أراد أن يدهننى .  
وهكذا انتقمتم لنفسى وأدخلت السرور على نفس منقذى ، فرافقنى إلى  
أول الطريق المأنوس ثم أطلقنى فضيت أعدو إلى البيت ا  
وكان هذا أول عهدى (برجال الليل) .

## أبو الهول وتمثال مختار

•

رأيت تمثال «مختار» كما لم يره غيري . ولست أعني أني دخلت في جوفه ،  
أو صعدت إليه ، وركبت أبا هوله ، أو نظرت إليه بأربع عيون ،  
ولكننا أعني أني لم أكد أقف أمامه وأهم بأن أرفع إليه عيني حتى  
أحسست طفيلياً إلى جانبي يتأبط ذراعي ، كأنما كنت أعرفه قبل أن  
يولد ، ويقول لي أن صانعه «مختار محمد مختار» . . . فصرفت نظري عن  
التمثال وانصرفت إلى هذا الذي اختار أن يكون صديقي دفعة واحدة  
وآثرني على غيري من الواقفين بصحبته وراقني الموقف جداً ، وقلت له  
وأنا ألخصه بعيني وأبحث في وجهه عبثاً عن مخايل «النشالين» .

- سبحان الله . أصبح ما تقول ؟

قال : وهل أنا أكذب عليك ؟ سل من شئت من الواقفين .  
قلت وقد زاد اغتباطي بالموقف :

- استغفر الله . فما أعرفك كذبت قبل اليوم .

وخطر لي أن أستخلص من هذا الموقف كل ما فيه من متعة فقلت :

- معذرة ، ولكن صاحبه عبد الغفار ، هل . . .

فقال بلهجة من يريد أن يدركني لينقذني :

- لا لا لا . مختار .. مختار محمد مختار .  
- معذرة مرة أخرى - مختار - وهل هو صاحبه ؟  
قال : نعم .  
قللت : ومن أين اشتراه ؟  
قال : اشتراه ؟ إنه هو الذى نحتته .  
قلت : وهل كان هنا جبل نحتته منه ؟  
فضحك ملء شذقيه ثم قال :  
- جبل ؟ أى جبل ؟ أليست من أهل القاهرة ؟  
قللت : كلا لى من الريف . وهذا أول يوم لى فى القاهرة .  
فزال عجبته ولم يسرنى أن أراه يضحك منى أنا الذى يريد أن يضحك  
منه ، غير أنه لم يسعنى أن أتراجع بعد أن ذهبت معه إلى هذا المدى ،  
ورددت الحديث إلى مختار فسألته :  
- وهل مختار هذا من قدماء المصريين ؟ أقول هل — معذرة إذا كنت  
غلطت فى اسمه مرة أخرى — ولكن هل هو — أعنى صاحب التمثال —  
من قدماء المصريين ؟  
فاقترب منه عن ابتسامة عطف على كتفه الجهل المجسد الذى كان يتأبطه ،  
واستل ذراعه ، فحمدت الله ووقف أمامى يتأملنى وقد شك فى أمرى على  
ما أظن ، وتوقعت أن أنفجر بالضحك المكتوم فيحدث بيننا ما لا تحمد  
- أو ما لا أحد أنا على الأقل - عقباه .

فأشرت إلى اسم التمثال المكتوب بالخط الكوفي على القاعدة  
وسألته : ما هذا ؟

قال : ألا تستطيع أن تقرأ ؟

قلت : أقرأ ؟ وهل هذه كتابة ؟

قال : نعم ، وماذا كنت تظنها ؟ إنها اسم التمثال - نهضة مصر .

قلت - وتجهمت له - اسمع يا صاحبي . لا يليق بك أن تغشني .

فراح يقسم بالله أن الأمر كما يقول وينطق الاسم وهو يشير إلى الحروف  
بأصبعه . فقلت :

- وهل هذا خط (عبد الغفار . . لا لا . . مختار . أليس كذلك ؟) إن  
خطه قبيح جداً . إن أبلد تلميذ في بلدتنا يكتب خيراً من هذا الخط  
ألف مرة .

وأحسبني حيرته وأدرت له رأسه بهذه الملاحظة فقد تلعم ، وسرني  
جداً أن أشهد ارتباكاً ، وأقسمت لأمطرته وإبلا من هذه المدهشات ، فلم  
أمله ريثما يفكر في جواب بل رميته بسؤال آخر عن المصرية الواقعة  
إلى جانب أبي الهول :

- وهل تعرف هذه السيدة ؟

فرفع رأسه بسرعة وقال بلهفة :

- نعم . لا . إنها من التمثال .

فقلت : شيء جميل والله . وهل هذه أول مرة تقف فيها هذه  
السيدة هنا ؟



فخلق فى وجهى ولم يفهم وضاعت النكته ، واحتجت إلى سؤال آخر قلت :

- وهل ستظل هذه السيدة واقفة هنا ؟

ففتح الله عليه بهذا :

- يا أخى هذه ليست سيدة . إنها حجر . تمثال . ألا تفهم ؟

قلت : فهمت . فهمت ولكن أتظل هكذا ؟ ألا تتعب ؟

فقال - ودق كفاً بكف - كيف تتعب ؟ ألم أقل لك إنها حجر ؟

قلت : آه صحيح . وأى حيوان هذا الذى بجانبها ؟

قال : حيوان ؟ هذا أبو الهول ينهض .

قلت : وهل كان راقداً قبل الآن ؟

فخيل إلى أنه سيدعنى ويجرى ، ولكنى كنت واهماً فقد ثبت وكان

أشجع وأجلد مما ظننته وقال بصوت خفيض - وفى تودة - :

- اسمع . ألم أقل لك أن اسم التمثال نهضة مصر ؟ اجبنى .

فأطعته وأجبتة ان نعم .

فقال : فهذا أبو الهول ينهض . يعنى أن مصر تنهض . أفهمت الآن ؟

قلت : بودى أن اكون فهمت حتى لا اتعبك . ولكن اين مصر هنا ؟

قال : أبو الهول يا أخى

قلت : وما هذه السيدة الواقفة بجانبه ؟

قال : مصر .

قلت : هل هما مصران ؟

قال : سبحان الله العظيم . لا يا اخى .

قلت : لا تؤاخذنى . ولكنك افهمتى ان ابا الهول هو مصر وإن السيدة هى مصر وقد تعلبت ان واحداً وواحداً اثنان .

قال : لا لا . إن هذا ليس حساباً . إن هذه مصر تنهض أبا الهول

قلت : اليس معنى ذلك ان مصر تنهض مصرأ ؟

قال : لقد بدأت تفهم . هذا هو المعنى .

قلت : ولكنى - ولا مؤاخذه - لم افهم .

قال - وهو مغیظ - كيف لم تفهم ؟

وبدا لى أن فى حديثنا من الجد اكثر من المقدار الذى يحتمله هو ،  
فعدت إلى التباله وسألته :

- ولكنى لا ارى الهرم هنا فهل نقله مختار ؟

قال : نقله كيف ؟ اين أنت من الهرم ؟

قلت : هكذا قرأت فى الكتب ان الهرم إلى جانبه ابو الهول فأين  
ذهب الهرم ؟

ويظهر ان نقل الهرم كان اكثر عما يطيق . فلوح يده فى  
وجهى ، وتمتم شيئاً لم افهمه لأنى شغلت بنظارتى التى هوت إلى الأرض  
وتكسرت عدستها وأولانى ظهره ومضى .

•

بعد هذا الحديث الذى استطعته والذى شغلنى عن التمثال وعن الوقوف به أتدبره كما ينبغى ، مضيت إلى أهرام الفراعنة ، فلما سرت عند أبى الهول وددت لو أن صاحبنا معى . إذن لسأله من صنع هذا ؟ أهو مختار أيضاً ؟

وتخيلته وهو يهز كتفيه أمامى — تحت أنفى — ويقول؛ لا يا أخى. الفراعنة .

فأعود أسأله .

- وهل هم أحياء ؟

فيستعيز بالله مى هذا الجهل المطبق ويقول .

- أحياء كيف ؟ لقد ماتوا منذ آلاف من السنين .

فأبدى له العجب من أن يكونوا أمواتا كل هذه الآلاف السنين أسأله .

- وبأى شىء ماتوا ؟

فيقول : لا أدرى . لا يدرى أحد .

فاكر عليه بقولى .

- أظن أنهم ماتوا بالطاعون ؟

فيقول - لا أدرى . ربما . من يدرى ؟

فألح عليه وأقول :

- أترجح أنهم ماتوا بالكوليرا ؟

فيقول بلهجة السّامان - ربّما ، ربّما ؛ قلت لك لا أدري  
فلا أدعه ولا أرحه وأقول :  
- أو لعلهم ماتوا حسرة ؟  
فيقول - وقد انتفخت مساحره من فرط الضجر ؟ ؛ ربّما ، قلت  
لك ألف مرة لا أدري ، ماتوا والسلام .  
فازداد عليه شدة وأسأله :  
- وأبناء الفراعنة ألا يزالون أحياء ؟  
فينقذني بلفظة ( مستحيل ) ويعض حروفها بأسنانه ، فلا يردعني  
هذا وأسأله عن أبي الهول وابن القاعدة وابن أبو الهول ؟  
فيعود إلى كفيه يدق أحدهما بالآخرى ، وبعد أن يقضى مأربه ويرفه  
عن نفسه بينهما لي فأقول :  
« ما أوقره ، وأشد سكونه - وهل هو ... هل هو ميت ؟ »  
فهبج برهة ثم يبين لي أنه حجر ، أو لا يستطيع معي صبراً فيلوح  
بذراعه ويمضى عني .



كلا ، تمثال مختار - « محمود » مختار - على براعته لأشياء حين  
يقيسه المرء إلى أبي الهول الفرعوني ، فإن على هذا الوجه من الكتابة  
والجد والتشوف والصبر والجلال والنبيل ، ما ليس له شبه في وجه  
الإنسان - وهو حجر ولكنه فيما يبدو للعين يفكر ، ينظر إلى الدنيا

حواله ولكن نظرته تتخطاها إلى الفراغ الذي يلفها في طياته ، وتتطلع إليه فيخيل إليك أنه يرد عينه إلى الماضي متجاوزاً محيط الزمن وأمواج أجياله وقرونه، أو متراجعاً بها ومطبقاً بعضها على بعض، حتى تعود وقد امتزجت وأضت مداً واحداً عند أفق القدم - نعم يفكر أبو الهول هذا ، في الحروب التي دارت أرحاؤها في الأزمنة الغابرة ، وفي الدول التي شهد قيامها وسقوطها ، وفي الأجيال التي رأى مولدها وراقب نهضتها ولاحظ فناءها ، وفي المسرات والأحزان والحياة والموت والرفعة والذلة التي دارت بها أربعة آلاف من السنين البطء .

ودع ما أرادوا أن يرمزوا له به ، ان كانوا قد قصدوا إلى شيء من ذلك ، فما أراه أنا إلا تجسيدا لتلك الملكة الإنسانية التي يسمونها «الذاكرة» ، في صورة بارزة محسوسة ، وما من أحد عرف أى شعور تحركه في النفس ذكرى الأيام السوالف ، وماذا ترسم على الوجه ، إلا وهو يستطيع أن يقرأ ذلك كله في هاتين العينين اللتين يديرهما أبو الهول فيما عرفه وشهده قبل أن يولد التاريخ .

وهو لا يقيس الزمن بالسنين ، فانها هنيهات ، ولا بالأجيال فانها لحظات ، وإنما يقيسه بالدول التي قامت ثم تقوضت تحت عينه التي لا تتعب ولا تشبع من النظر، ذلك أن فيه معنى من معاني الخلود، فقد رأى منف وطيبة وشاهد مجدهما، وعاش ليصير الخراب يعنى عليهما ويوكل بهما اليوم والوطايط ، ورأى أبناء اسرائيل يقومون ثم يسحقون ، والأغارقة ينهضون ثم يموتون، ورومية تشاد ويرتمى ظلها على الارض

ثم تقضى ، والعرب يستفيضون فى الدنيا أسرع من العاصفة ثم يذهبون فى سبيل من غير .

وكما أخذت عينه عظام مئآت من الدولات كذلك ستأخذ قبور مئآت أخرى قبل أن يفتر لحظها وتطبق الجفون .

والمرء ينظر إلى أبى الهول الساهد ويفكر فى آلاف السنين التى قضاهما هنا على حافة الصحراء ، فلا يستغرب ولا يتخالجه شيء من الشعور بالتناقض بين هذه الدهور الطويلة وبين مقامه هذا ، وذلك أن ربهضته تشيع فى النفس معنى الاستقرار التام . وقد أحسن القدماء بإيثار الربوض له فإنه جلسة مريحة تقترن فى الذهن بمعنى الاستمرار ، وليس كذلك « النهوض » ، كما هو مصور فى تمثال مختار ، والمرء خلىق حين يعود إليه مرة بعد أخرى أن يحس أن لهذا الوضع ما بعده ، أما أن يثب إلى الأرض ، ولما أن يعود إلى الجثوم والراحة والسهموم مرة أخرى ، إما البقاء هكذا يوماً بعد يوم . وشهراً فى اثر شهر ، وعاماً فى عقب عام ، فليس من السهل على العقل أن يأنس إليه ويقتنع به ، وقد تكون هذه مزية للتمثال ، وعسى أن يكون المقصود بها انها نبوءة أو أمل أو نحو ذلك . ولست أعيب أو انقد ، فما أعنى أكثر من أنى حين أنظر إلى التمثال لا احس أنى قد رايت كل شيء ، وقد اتوهم انه سيثب عن القاعدة إلى الأرض .

وهذا الذى عليه أبو الهول الجديد اقماء لانهوض ، فإن الحيوان - من البعير إلى الهرة - حين يريد أن ينهض ، يقوم على رجليه الخلفيتين أولاً ثم على الاماميتين ، اما القيام على رجليه الاماميتين ،

فحسب فهذا هو الأفعاء ، وهو جلسة للحيوان يتخذها أحيانا ،  
واكثر ما يراه الانسان في الكلاب ، حين تقعد ناشرة آذانها راصدة  
عيونها ، وحسب ان مختارا انما اثر هذا الوضع لأن منظر ابي الهول  
يكون غريباً ثقيلاً إذا انهضته على رجليه الخلفيتين ، كما ينبغي ان  
يفعل إذا كان يقصد إلى النهوض ، او لعل عذر مختار ان ابا الهول هذا  
خليط من الإنس والحيوان فله ان ينهض كيف يشاء حتى على راسه .

وهذه الفتاة المنصوبة إلى جانب ابي الهول لأفهم معناها ولا ادري  
لماذا يقيمها المثال هناك ويضئها بهذه الوقفة المتعبة ؟ ولو كنت انا  
مختارا ، لاستغنيت عنها جملة ولاجزأت بأبي الهول وحده . لأنه إذا  
كان المراد الرمز إلى ان مصر تنهض ، فإن ابا الهول بمفرده حسب من شاء  
ان يرمز إلى ذلك . ولن يركب الجهل احدا فيتوهم ان المراد به رومية  
او قرطاجنة ، فقي نهوضه وحده ما يكفي رمزا للنهوض البلاد التي اقترن  
اسمه بتاريخها . زد على ذلك ان قيام الفتاة إلى جانبه تخليط ، وذلك  
انما على ما فهمت رمز لمصر الحديثة . وعلى هذا يكون ابو الهول عنواناً  
على مصر القديمة ، وكان المعنى - على هذا - ان مصر الحديثة توقظ  
مصر القديمة ، او ان مصر القديمة تنهض إلى جانب الحديثة وفي كنفها ،  
وكلا المعنيين مستحيل يرفضه العقل ولا يسبغ معناه ، واصح من ذلك  
ان هناك - او هنا على الأصح - مصر واحدة تاريخها سلسلة متصلة  
الحلقات ، وانها كانت نائمة او متفترية او ماشئت غير ذلك ثم ، هي  
الآن تستيقظ او تنفض عنها غبار القرون وتهم بالنهوض ، وهو  
معنى لا يحتاج إلى هذه الفتاة التي تفسده ولا تؤيده .

ولست استريح إلى وقفة الفتاة فإنها كاللصا ، ويمناها التي على  
راس أبي الهول غريبة في وضعها ، فإنه لا يسندها في الحقيقة إذا تأملت  
الاصابع ، أما ذراعها فكالمعلق في الهواء وان كانت الشفلة -  
أو لا ادري ماذا هي - تحجب هذا التعليق عن عين الناظر ، وهي  
لا تفعل بيمينها هذه أكثر من هذا الاستناد بأطراف الأصابع دون  
باطن الراح ، ولا ادري لماذا جعلها كذلك ولم يدعها تريح ذراعها ؟ ثم  
ما معنى هذا الوضع وما الذي قصد به إليه ؟ أترأه أراد الإيقاظ ؟  
فهذه ليست حركة إيقاظ ، وليس في وجه الفتاة أدنى التفات إلى الذي  
يجانبها أن صح أنها تريد أن توقظه . أم ترى المراد أن مصر الجديدة  
تخسر عن وجهها وتبرز للعالم معتمدة على مصر القديمة ، فإن كان هذا  
هو المقصود وأحر به أن يكون ، فإن رمز النهوض واليقظة هو الفتاة  
لا أبو الهول ، ولا داعي إذن لإقامة أبي الهول على رجله ما دام  
أن الناهضة سواء ، وأنه ليس إلا تكأة ووسيلة للرمز إلى الاتصال  
بالماضي ، وحينئذ يكون المعنى اتم واقوم بأن يظل أبو الهول هذا  
رابضاً على العهد به والفتاة حاسرة إلى جانبه .

والخلاصة أن التمثال كان حقيقاً أن يكون أوفى بالغرض فيما أرى  
لو أن أبا الهول ظل رابضاً إلى جانب الفتاة المعتمدة عليه إشارة  
إلى اتكاه مصر الحديثة على ماضيها واعتزازها به واستيحائها إياه ، أو لو  
أن التمثال خلا من الفتاة . والأولى عندي أفضل اجتناباً للاقواء ، وتفادياً  
من الوقوع في هذا الغلط . أما التمثال في شكله الحالي فلا اكتم القراء  
أنى أحس كأنى أحله وقاعدته على ظهري . ولا يسوء مختاراً قولي هذا فإنه  
يعلم أنى من أجهل الناس بالفنون ، وأن ليس لى من الوسائل المعينة  
على حسن التقدير سوى رأس واحد وعينين اثنتين ليس إلا .



## الحب الأول

•

كنت صغيراً لم أدخل - بعد - في حدود الشباب ، وكان الوقت صيفاً ، وأكثر ما أقضى النهار أمام البيت اللاعب الصبية من لدائق ، فرة نكون قطاراً بخارياً مؤلفاً من بضعة عشرة قاطرة - ليس بينها مركبة واحدة - ننفخ جميعاً ونقول : اومف اومف بفو بفو ، وأخرى نكون خيلاً تصهل وتتوثب وتضرب الأرض بحوافرها وتزعج المارة وتصطدم بهم ، وطوراً تتقاذف بالكرة ونحطم بها زجاج النوافذ فيثور السكان ويجلوننا عن الحارة ، وتارة نقسم أنفسنا فريقين ، عصابة من اللصوص وضباطاً ، وأحياناً نعصب لواحد منا عينيه وتتوارى عنه وينطلق هو وراءنا باحثاً فن لقي منا غضبنا له عينيه بدلامنه ، وهكذا إلى آخر هذه الألعاب الصببية أن كان لها آخر يعرف أو حدتقف عنده ولا تعدوه . وكنت أنا بفضل الله احققهم جميعاً وأشرسهم خلقاً وأسرعهم إلى الشجار ، وكنت إذا ضاربني أحد لا أبالي أين وقعت يدي ، ولا أتق أن أصيب عينه أو أنفه أو أسنانه ، وقد اتناول الحفنة من التراب واعفر به وجهه وأرده كالأعمى ، ثم انهال عليه لطماً ولكماً وركلاً . فقد كنت واسع الخيلة كما ترى فعوضني ذلك من ضعفي ، وصارت لي بفضلته منزلة بين هؤلاء الصبيان . وكانت لي جارة - فتاة صغيرة كالنرجسية

في مثل سنى - وكنت أكثر ما أراها مظلة من النافذة علينا أو واقفة  
إلى بابها تنظر إلينا ولا تشترك معنا ، ولا أستطيع أن اصفها ، فقد  
بهتت صورتها بعد كل هذه السنين الطويلة ، وإن كنت لا أزال أرى لها  
نوطة في القلب وعلوقاً بالفؤاد كلما كرت في الذاكرة إلى تلك الأيام ،  
وكانت لا تفتأ تنكر منى طيشى ومغامراتى . رأيتى مرة مقبلاً على البيت  
بعد الغروب بقليل وعلى جلبابى الأبيض طوائف شتى من الأحوال  
فاستوقفتنى وسألتنى : « ما هذا ؟ ماذا أصابك ؟ »

قلت : اعترضتنى حفرة واسعة فأردت أن اعبرها وثباً فقصر الوثب  
عن الغاية فكان ما ترى .

قالت : لو فكرت قبل أن تثب لعلبت أنك لا تستطيع أن تعبر  
الحفرة .

قلت : ولكنى عبرتها .

قالت : كلا ! لم تعبرها بل وقعت فيها وهذه ثيابك تشهد عليك .

قلت : ولكنى اجتزتها والسلام . ألا تريينى أمامك ؟

قالت : عنيد ولا خير فى الكلام معك .

وتركتنى .

واتفق بعد شهر من ذلك أن لقيتها عائدة إلى بيتها وكنا على مسافة  
مائتى متر منه ، فلما صرنا فى « الحارة » ، إذا هى زحلوفة لا تثبت فيها  
القدم من كثرة الماء المرشوش ، ولم يكن ثم طريق آخر ، فاسندت يدها

على الحائط. وناولتني يدها الأخرى ، وقلبا كنت ألمس يدها . فلما صارت كفها في كفي شعرت بشيء من الزهو ممزوجا بالغبطة ، وخفت على يدها اللينة البضة أن تؤذيها قبضتي - التي خيل إلى أنها قوية - فجعلت أصابعي حول رسغها حيث العظام فيما بدا لي أقوى على الاحتمال، وجعلت أخطو بحذر مخافة أن يطير إلى ثوبها النظيف رشاش من الماء القدر، وكانت مضطرة أن تعتمد على بجسمها ، وتلك أول مرة دنت مني أو دنوت منها إلى هذا الحد ، وكان شعرها محلولا ومرسلا من فوق كتفها على صدرها، فجعلت أدنى أنفي منه وأشمه، ولم يكن معطرا ولكنني كنت أجده ريحاً طيبة، فلحظت ذلك مني وسألتني وقد جذبت يدها قليلا « ما هذا الذي تفعله ؟ »

قلت : إني أشمك .

قالت : تشمني ! إنك أوقح من رأيت من غلبان حارتنا .

قلت : لست أقصد أن اكون وقحا ولكن لشعرك رائحة طيبة فهل من بأس أن أشمه ؟

قالت : كلا لا تفعل .

قلت : لقد فعلت وانتهى الأمر .

وبعد قليل قلت :

« هل تعلين ان على وجهك وشعرك سبعة - ثمانية نجوم ؟ »

فابتسمت ولم ترد ، فقلت ومددت أصبعي وأشرت به

« حقيقة . نجهان على شعرك ، هنا وهنا ، ونجم على جبينك هنا -  
ثلاثة - ونجم في كل عين - خمسة - ونجم على طرف انفك - ستة - واثنتان  
على فكك هنا وهنا - ثمانية نجوم - ليت معك مرآة ! إذن لأريتك ! ،  
فضحككت ، وكنا قد صرنا إلى الارض الناشفة فعندنا إلى وسط  
الطريق وسرنا ، ولكن يدها بقيت في يدي ، حتى بلغنا بيتها فشكرتني  
ودخلت .

ومنذ ذلك اليوم صار لهذه الفتاة تأثير في نفسي ، لا أعرف له مشبها ،  
للم يخطر لي قط أنه راجع إلى أية عاطفة خارجة عن حياتي العادية ،  
فكسبت كل ما رأيتها اشعر بشيء من الدهشة ويعاودني الحنين إلى شهما - اعني  
شم شعرها .

ولقد عرفت بعد ذلك فتيات كثيرات اجمل منها واقفن ، ولكن  
خطأت فيهن جميعاً ذلك العبق الذي كانت تستريح اليه حواسي ، والذي  
كان يفر له جسمي ، وكانت تغيب عني اسبوعا واسبوعين فأناساها ،  
وان كنت احياناً ارى صورتها ماثلة في ذهني وفي احلامي ، وصرت  
احب ان اراها وهي لا تراني ، لأنني اليها مطمئناً وارى شفقيها الدقيقتين  
تفتران عن ابتسامة خفيفة ، واشتاق ان اساعدها واحميا كما ساعدتها يوم  
نخطيت بها تلك الارض المبللة ، وان اسمعها تشكرني كما شكرتني يومئذ .

وقلت على الايام ملاعبتي للصبيان ، وكثرت وقفاً معها على بابها ،  
ثم غابت اسابيع في قرية فيها بعض اقاربها ، فشعرت بوحشة لا عهد لي  
بمثلها ، وثقلت الحياة على كاهل صبري ، فذهبت انا ايضاً إلى اقاربي وقضيت

عندهم شهرا كان من اطيب ما مر بي واحلى واندى . ثم عدت ولقيتها  
مساء يوم على باب دارها كعادتها، وكانت مطرقة وفي يمينها عود من ثمر  
الحناء تقطع يسراها اكامه التي لم تنور، وتفركما بأصابعها وتدعها تسقط  
إلى الأرض، فدنوت منها وهي لاتحسنى ووقفت برهة، ثم قلت بصوت  
خفيض مرتعش . « فيم تفكرين ؟ »

فلم ترفع عينها ولم تولني نظرة واحدة، وقالت وهي مطرقة وأصابعها  
لا تزال تعبت بما في يدها .

« فيم أفكر ؟ في مثل هذا — في النور الاصفر تحت اكامه الخضراء،  
في سحاب التراب على الطريق ، في الأغصان الصغيرة الخضراء النابتة  
على فروع الشجر ، في الاطيوار تلتقط القش وخيوط الصوف التي ألقيها  
لها لتحملها بمنافيرها وتصنع منها أعشاشها، في ألوان الفجر على الأشجار  
والحقول الندية الملتمة ، في الامساء الصافية الحالية بالنجوم المرتعشة،  
في الصدران يترقق فيها الماء حول قدمي المدلاتين — » (ثم رفعت  
وجهها إلى وقالت : « في هذا أفكر ،

وكانت تتكلم بصوت خافت متد متزن النبرات كأنما تحدث نفسها  
فدهشت ، لا بل بهت ، ووقفت صامتاً كأنما أستل لسانى من حلقى ،  
وظللنا كذلك لا أدري كم ، ثم قالت « والآن سأدخل . »

ولكنها كانت بالذى يهم بالدخول أشبه، فوجد لسانى الكلام وقلت  
« لا تذهبي هكذا بغير تحية أو سلام . »

فوقفت مكانها وأمالت رأسها ووضعت يدها في خصرها كأن هنا

شيئاً يؤلمها فدنوت منها فإذا بلعة عينها تنطق "ووميضها يخبر ، فقلت :  
« ماذا كنت تقولين ؟ »

فلم تجبني ومدت يدها إلى بثمر الحناء فقلت .  
« هذا حسن . تحية طيبة . سأذكرك بها دائماً . والآن ماذا كنت  
تقولين ؟ أم شيء يحزنك ؟ »  
قالت : « أى شيء يحزني ؟ لا شيء » .

قلت « انى أرى هذا فى عينيك ، فى ووميضها ثم انطفاء هذا اللمعان » .  
قالت وعلى ثغرها الدقيق طيف ابتسامة : « ماذا ترى فى عيني ؟ »  
قلت : « وكأنى ألهمت الألفاظ » أرى كأنك كنت تنتظرين شيئاً ثم  
لم يحدث »

فقالت « فقط ؟ لا أكثر ؟ »

قلت « فقط . وأريد أن أعرف ما هو ؟ ولماذا ؟ »  
فأطلقت ضحكة صغيرة فضيحة النبرات ، وبدأ عليها شيء من السرور وفتحت  
ذراعها وقالت « كلا لعل قلبى أطل من عيني هنيهة كما يطل الطفل من  
النافذة ثم عاد إلى مكانه .. »

فابتسمت وقد زدت بها إعجاباً وقلت « وماذا أراد قلبك أن يرى  
من نافذة عينيك ؟ »  
قالت « ألا تطل أحياناً من النافذة فتبصر طفلاً يعدو وهو مسرور ؟ »  
قلت « نعم »

قالت : كذلك القلب أحياناً يجرى أمام العين فرحاً مسروراً، أظن  
قلبي فعل ذلك حين رأيت عيني تلعبان .

ثم بعد ثانية أو اثنتين :

« والآن دعني ادخل ، إن معك هذه الزهرة فاحفظها ،

ومضت عني وتركنتني واقفاً كالابله لا أكاد افقه من كل ما قالت  
شيئاً وإن كنت قد وعيته كما لم أع في حياتي شيئاً غيره .

ومر عام وكنا قد انتقلنا إلى بيت آخر فررت بدارها يوماً بعد الغروب،  
وكان الباب موارباً رأيتها تسقي أصص الزهر في فناء البيت، فوقفت أتأملها  
لحظة وهي تقبل الورد والأزاهير بعد سقيها ورشها ، ثم دخلت في رفق  
وهست باسمها فلم تسمع ، فأعدت الهمس فانتبهت كالمدعورة .  
وقالت « إبراهيم ؟ » وكررت ذلك .

فاقتربت منها وقلت « نعم هل افزعتك ؟ »

ووقفت . شفتاها مفترقتان ووجهها تصبغه الحرة من أثر المفاجأة.  
ولم أكن أعرف ماذا ساقني إليها سوى أنني اشتقت أن أراها وإن  
أقف معها لحظة احادتها ، وقالت :

« لقد كان يجب أن أفزع ، فما سمعتك تدخل ، لكن من الغريب إنك  
خطرت بيالي وأنا أسقي هذه الأصص . »

فكدت أصبح لا أدري لماذا ، وقلت « أصبح هذا ؟ انه يسرني »

فقال « لم أكن افكر فيك تفكيراً يسرك ( وضحكت ) لقد كنت  
ساخطة عليك . »

فضحكت مثلها وقلت « ماذا جنى هذا الشقى ياترى ؟ » .  
فقلت « لست ساخطة لانك فعلت شيئاً ، لقد كنّا عندكم انا ووالدتي  
واختي وقضينا النهار كله تقريباً ، وانت لا اثر لك فى البيت ، ولا يدرى  
اجد اين ذهبت ، وفى وسعك ان تتصور مللى بين السيدات العجائز . »  
فضحكت مرة اخرى وقلت « انى افضل أن ألقاك هنا ويسرنى أن  
اجدك وحدك » .

قالت « وهل كنت واثقاً انك ستلقانى هنا ؟ »  
قلت « كلا » ،

قالت « اذن لماذا جئت الآن ؟ »

قلت « لا اعلم ، اشتقت أن اراك لا ادرى لماذا فجئت . »

ولم اكن اكذب ، فما كنت استطيع ان اعطى الشعور الذى يدفعنى  
إليها ، ولا جرى ببالى إن اعلمه ولكنى بهذا التصريح بالسكون الذى  
تلاه ، شعرت انى دنوت خطوة من الحقيقة المجهولة ، او هكذا يخيل إلى  
الآن ، وانعقد لسانى فسكت واعدتها فسكتت مثلى ، واحسنا كلانا فيما  
نظن - كأن هناك شيئاً جديداً يخفق به الجو ، شيئاً لا يناله ادراك ولا  
يرقى إليه العقل ، غير محسوس كالطيب يحمله النسيم .

ومر بخديها طيف من الحرّة ما جاء حتى ذهب ففتحت عليها عينى  
واتأرتها النظر ، فتراجعت خطوة وهى تقول « ينبغى ان ادخل ، فوقفت  
ارمقها وهى تدور لتمضى عني ، ثم كأنما انشق عني سور فاندفعت اليها  
ووقفت إلى جانبها ، وجعلت أدير لسانى فى حلقى بلا كلام وقلبي يخفق



وتناولت يدها وذهبت بها إلى الباب حيث ظللنا برهة صامتين، ثم صاحبت  
« يدي . يدي ستحطمها »

فانتبهت وأطلقت كفها وأسفت، فقالت بصوت عذب « دعني أدخل يا الله،  
فتناولت يدها مرة أخرى وعدت أطلب أن تغفر لي أيدائي يدها،  
وقلت اني لا أستطيع أن أعود إذا لم تقل لي انها ليست حائقة علي . وكنت  
أحس أصابعها تتحرك في كفي فقالت:

« كيف احقن ؟ لقد نسيت . دعني أدخل »

قلت — وأعود مرة أخرى لاراك ؟

قالت — نعم

قلت — ولا تعجلين بالدخول ؟

قالت — كلا ، دعني الآن .

ولكني لم أعد لا اليوم التالي ولا الاسبوع التالي ولا الشهر التالي،  
لسبب طبيعي جداً هو اني لم أكّد أسير إلى آخر الطريق حتى برز لي  
شاب من الظلام وصاح بي « ماذا كنت تفعل هناك ؟ »  
قلت « أين ؟ »

قال « هناك » وأوما برأسه وبأبهامه إلى بيتها .

قلت — كنت أزورهم .

قال — تزورهم ؟ هيه ؟ تزورهم سأعليك أن تزورهم مرة أخرى  
ودفعني في صدرى فانطرحت على الارض ، وقت ألعنه وأسبه وأقبل علي

ودق رأسي بجمع يده فهويت إلى الأرض على ركبتي وركلتي برجله ، وذهب وهو يتوعدني إذا فكرت في العودة إلى هذا الطريق .

ولم أكن أعرف هذا الوحش ولا وقعت عيني عليه من قبل ، ولم أفهم — إلى هذه الساعة — سر هذا العدوان . فرجعت إلى البيت بصدر مومج ورأس يكاد يكون مهبثا وعظام مرصوفة .

ولزمت الفراش أباما وخفت بعدها أن أرجع ، ثم صرت استحي أن القاهما مخافة أن تسألني عن سر غيبيتي ، أو أن تكون قد علمت به .

وبعد شهور عدت من المدرسة يوما فإذا هي ووالدتها في بيتنا ففرحت وخجلت ، ولما سلبت كانت يدي ترتجف ، وعيني إلى الأرض ، وذهبت إلى غرفتي فأدركتني في الصلاة وقالت «خذ» وناولتني عوداً من ثمر الخناء فأخذته في صمت وادنيته من أنفي ، ووقفت اشبه واشبه وقد غاض معين الكلام وانقطع عني مدده . فلما رأت صمتي وارتباكاً قالت :

— سنذهب إلى الريف ،

فانطقتني هذه المباغته وقالت — سنذهبين ؟ وكم تظلين هناك ؟

قالت «عاما . أتستكر ذلك ؟»

قلت — «بالطبع أني آسف جداً» .

قالت — «ولكنك لا تزال تهرب مني» .

فأغضيت عن هذه الملاحظة ، وسألتها — «وماذا تنوين أن تصنعين هناك هذا العام ؟» .

قالت — ياله من سؤال وكيف يعينك أن تعرف ؟»

وضحكت لجلت ضحكها صدرى ونفت غاوى ونظرت إليها معجبا،  
وأحسست بالدم يتدفق في عروقي ، وبأنفاسي تسرع ، وحمل إلى النسيم  
الواقي طيب شعرها فمدت يدي إلى كفها ، وكانت شفتاها مفترقتين  
وعيناها في عيني ، وصدرها يكاد يلسني ، فألفيت نفسي انحنى عليها والمس  
شفتها بضمي ، فصار وجهها كالجمرة ، ولكنها لم تتحرك ولا تكلمت ،  
ودار رأسي كالخمرور فتقهقرت خطوة ، وهي واقفة كالتمثال ، وما أظنها  
كانت تتنفس أو تفكر ، فما رأيت صدرها يتحرك أواجفانها تحتلج :  
كلا لا شيء إلا هذا الجمر في خديها ينبئ أنها حية .

وأفاقت ثم أصعدت زفرة كأنما كنت لطمتها ولم أقبلها ، ثم هتفت بي ،  
فأسرعت وأخذت يديها في كفي ، ثم رفعتهما وقبلتهما وقلت لها : « أغاضبه  
أنت ؟؟ قولي إنك لست غاضبه » .

فأجابتنني بهزة خفيفة لرأسها ، فقلت :

« لست غاضبه . أعلم ذلك ، وإلا فاقبلتك ، تكلمي » .

فقالتمهما : « دعني أذهب أني خائفة » .

فقلت « إنك جميلة . جميلة » وأنهلتي على يديها مرة أخرى التهما ظهرا  
وبطناً ثم سحبت يديها ببطء ، ووضعتهما على صدرها وقالت وهي تتلعثم  
وترتجف : « قل لي ما هذا » ؟ .

قلت : « ووضعت يدي على يديها فوق صدرها » هذا ؟ الاتعللين أنه  
الحب ؟ » .

فتهدت ، وارخت يديها وتركتهما تهويان وقالت :  
« سأذكرك دائماً » .  
قلت : كلا هذا لا يكفي . سيحبك غيري » .  
ولم تكد شفتاها تفترقان ، وهمست كأنما تتنفس .  
« سأحبك دائماً » .  
وكان هذا آخر لقاء ، فقد زوجها في الريف .

## حلاق القرية

وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة ، قبل أن تتغلغل المدنية إلى أنأى قراه ، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها، فقد عرض على مضيئى أن استعمل موساه فابيت ، وقلت مادام للقرية حلاق فعلى به ، لحذرني مضيئى وانذرني ووعظني ، ولكنى ركبت رأسى واصررت أن يجيى الحلاق . فجاء بعد ساعات يحمل ماضته فى أول الامر ( مخلاة شعير ) وسلم وقعد وشرع يحينى ويحاذنى حتى شككت فى أمره واعتقدت أن الحلاق شخص آخر ، وأن هذا الجالس أمامى ليس سوى ( طلائعه ) ولما عيل صبرى سألته عن حلاق القرية ، فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأنى أن الحلاق ( محسوى ) يعنى نفسه ، فلعنته فى سرى وسألته متى ينوى أن يخلق لى لحيتى ؟ أم لابد أن يضرب بالرمل والحصى أولاً ويحسب الطالع قبل أن يباشر العمل ؟ فلم يفهم وأولانى صدغا كث الشعر وقال : هيا ، فظننته أصم وصحمت به ( أ . . . ر . . . يد أن . . . أ . . . ل ق ) فسرره صياحى جداً ، وضحك كثيراً ، وأقبل على ( مخلاته ) فأخرج منها مقصاً كبيراً جداً ، فدنوت من أذنه وسألته هل فى القرية فيل ؟

فقال : فيل ؟ لماذا ؟

فأشرت إلى المقص فضحك وقال : « هذا مقص حمير ولا مؤاخذة » .

قلت : ولماذا تجيئني بمقص الخير ؟ احماراً تراني ؟ .  
ويظهر أن معاشره الخير بلدت احساسه فإنه لم يعتذر لي ولا عجب  
بسؤالي شيئاً ، ثم أخرج موسى من طراز المقص و ( مكنة ) من هذا  
القبيل أيضاً ، فعجبت له لماذا يجيئ لي بكل أدوات الخير ؟ وسألته عن  
ذلك فقال : إن الله مع الصابرين . وبعد أن أفرغ مخلاته كلها ابتقى أصغر  
الأدوات ، وأصغرها أكبر ما رأيت في حياتي . ثم أقبل على وقال :  
« تفضل » .

قلت : ماذا تعني ؟ قال : اجلس على الأرض ، قلت : ولماذا  
بالله ؟ قال : ألا تريد أن تتخلق ؟ قلت : ألا يمكن أن أحلق وأنا قاعد  
على الكرسي ؟ قال : وأنا ؟ قلت في سرى : وأنت تذهب إلى جهنم  
ونعم المصير ، وهبطت إلى الأرض كما أمر ، ففتح موسى كالمبرد ، قلت :  
أن وجهي ليس حديداً يا هذا ، قال لا تخف إن شاء الله ولكني خفت  
بإذن الله ولا سيما حين شرع يقول « بسم الله ، الله أكبر » كأنما كنت  
خروفاً ، ويبصق في كفه ويشحذ موسى على بطن راحته ، ثم جذب  
رأسي ، فذعرت ونفرت ووليت هارباً إلى أقصى الغرفة ، فقال : ماذا ؟  
قلت : ماذا ؟ أتريد أن تتخلق لي بمبرد ، ومن غير صابون ؟

قال : ماذا يخيفك ؟ .

قلت : يخيفني ؟ لقد دعوتك لتخلق لي لحيتي لا لتبرد لي شعرها .  
قال : يافتدى لا تخف .

ثم قرأ من الكتاب الكريم : فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته

البشرى ، إلى آخر الآية الشريفة ، واظنه أراد أن يرقينى بها فياها من حلاقة لا تكون إلا برقية ا .

واسلست أمرى لله وعدت فقعدت ، أمامه فنهض على ركبتيه وتناول رأسى بين كفيه وأمال صدغى إليه ثم وضع ركبته على نخذى ولف ذراعه حول عنقى ، فصار فى مدفوناً فى صدره فصحت أو على الأصح جاهدت أريد الصياح لعل أحداً يسمعنى فينجدنى ، غير أن طيات ثوبه كانت فى فى ، أما رائحة الثوب فبحسب القارىء أن يعلم أنها أفقدتنى الوعى .

ولا أطيل على القارىء . فقد أهوى الرجل بموساه على وجهى فسلخ قطعة من جلدى فردنى الألم إلى الحياة ، وأتانى القوة الكافية للصراخ على الرغم من الكمامة ، ووثبت أريد الباب ولكنه كان على كبرسنه أسرع منى ، وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك ، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظاً لأمثال هذه المحاورات ، فردنى بقوة ساعده . فلتشهدت وتذكرت قول المتنبي :

وإذا لم يكن من الموت بد  
فن العجز أن تموت جباناً

كلا ساسدل الستار على هذا المنظر الذى يقشعر منه جلدى على الرغم من كر السنين الطويلة . ثم جاء هذا السفاح بطشت يغرق فيه كبش ، ووضعته تحت ذقنى وصب ماءه على وجهى وفى صدرى وعلى ظهري ، ليغسل الدم الذكى الذى أراقه ، وأخرج من غلاته ( منشفة ) هى بممسحة الأرض أشبه ، فاعتذرت وأخرجت منديلى وسبقته به إلى وجهى . ففى معركة لا تزال بجلدى منها ندوب وآثار .

## سحر مجرب

لا أدري كيف أسوق للقارئ حكاية هذه التجربة بحيث لا يتوهم أني أهزل، ولكن الذي أدريه أنه قل بين الصبيان من اتفق له ما اتفق لي من التجارب ، ولو أنه قدر لي أن اكتب تاريخ حداثتي .. ولكن هزيل الصبر ، ولعل بما هو حقيق أن يعين القارئ على فهم البواعث التي تغري حدثاً في مثل سني يؤمئذ بما فعلت ، أن أقول له إنني نشأت نشأة دينية ، واعني بذلك أن أهلي من أهل الورع والتقوى والصلاح ، وأن يتنا كان في فئاته مصلى أو مسجد صغير عامر أبداً بالمصلين ليلاً ونهاراً . والآن إلى القصة بعد هذا التمهيد الوجيز الذي لم أر منه بدا انقاء لسوء التأويل ونفيا لمظنة المغالاة .

عثر في باكورة حياتي على أوراق مخطوطة استولت على هواي واستبدت بخاطري ، وقد اعتقدت يومئذ انها بخط جدي لأبي وإن كنت لا أذكره إلا كالحلم ، فقد مات في طفولتي ولحق به أبي ، ولم أره قط يكتب ولا ثبت عندي أن هذا خطه ، وكنت أكبر جدي وأجل ذكره لغير سبب سوى ما كان تلاميذه يحدثوني به عن علمه وتبحره وتقواه ، فقوى اعتقادي هذا ثقتي بما في الأوراق وثبت يقيني فيها ، وكان من عادتي أن اقضي الصيف في الإمام ، حيث تقيم طائفة كبيرة من أهلي ، وكان



لأحدهم حمار مليح القسمات لين الخطوات ، فكنت أركبه حين أشاء  
إلى حيث أشاء ، وأبى الحظ إلا أن أعشق ، وما أكثر من عشقت  
في تلك السنوات الأولى من شبابي . ولقد صدق أخى « العقاد » حين  
قال يصفنى بعد ذلك بأعوام عدة :

أنت في مصر دائم التمسيد بين حب عفا وحب جديد  
بين ماض لم يذبل الحسن منه وطريف كاليانع الالمود  
أنت كالطير . ربما شالت الطير عن الأليك وهو جم الورود

ولم يكن الحظ يلقينى إلا على كل فتاة « عسيرة البذل » كما يقول  
الشاعر - ولا أذكر من هو - فخرت ماذا أصنع ، ولم أر أن أستشير  
أحدًا من الصليان الذين كنت أختلط بهم ، لأنى كنت أراهم دونى معرفة ،  
ثم تذكرت الورقات التى كنت أعتقد أنها بما خلف جدى ، فوجدت فيها  
( فائدتين ) طرت بهما فرحاً ، فأما الأولى فتقول :

« من أراد الارتقاء إلى الدرجات العلا فليظهر ظاهراً وباطناً ،  
وليصم سبعة أيام وليواظب دبر كل صلاة على هذه الأسماء - يا هادى  
يا خير يا متين يا علام الغيوب - ألف مرة ، فإنه يكشف له عن كنوز  
الأرض وينادى به فى ضمائر الناس ، وإن أكل ثلاثة أسابيع فى الرياضة  
كشف له عن ملكوت السموات والأرض بإذن الله تعالى ، وأما صفتها  
للإخفاء فهى أن تقرأ الآية الشريفة سبعة وخمسين مرة ، ثم تقول  
بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم - إلى قوله فهم لا يبصرون -  
ثلاثمائة وثلاث عشرة مرة ، فلو اجتمع أهل السموات والأرض على أن

بصرك لم يقدرُوا ويعمى الله أبصارهم عنك فلا يرونك ، وأكثر من  
ذلك أن يحول الله قلوبهم لئلا يذكروا بالبراقعة والمجد والعطف ، .

وكان هذا كل ما في الورقة ، فأما كنوز الأرض فلم يكن يعينني منها  
بومذاك شيء ، فما كان لي هوى إلا مع تلك الفتاة ، أو رغبة إلا في الالة  
قلها . وأما الكشف عن ملكوت السموات والأرض فشيء مرعب  
خفت أن أعالجه فاصعق . وأما الاختفاء عن الأبصار فهذا ما سحرني  
واستولى على لبي ، وتشبعت به خيالي . ألسنت أستطيع إذا فزت بذلك  
ووقفت إليه ببركة هذه الفاتنة ، أن أكون أدنى شيء إلى الفتاة وأن  
أراها ولا تراني وأتملى بحسنها وقربها وهي ذاهلة عني لاتحسني ؟

ألسنت أستطيع بفضل هذا السر الجليل أن أكون حيث أشاء وإن  
أفعل ما بدا لي بلا تثريب ؟ لا تراني الأبصار ؟ وافرحته ؟ أى شيء  
اتقى بعد ذلك ؟ أى شيء يصعب علي ؟ تالله ما أولاني بحمد الله على أن  
كان لي مثل هذا الجد الصالح ؟ .

ولكن الورقة لم تذكر الآراء التي لابد من تلاوتها سبعاً وخمسين مرة ،  
نأذا أصنع ؟ حرت قليلاً ولكنى كنت فتى عملياً ، فتناولت المصحف  
شريف وقلبيته حتى وقعت بيني على قوله تعالى : لاتدركه الأبصار وهو  
عندك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، واقنعت نفسي بأن كلام الله كله في  
منزلة واحدة من الجلال وأن كل آية ككل آية ، وليست كلمة منه بأفضل  
من أخرى غيرها . وما أرى حتى الآن إلا أن منطلق كان مستقيماً  
وتفكيرى كان سليماً سديداً .

وأما الفائدة ، الثانية فتقول ما يأتي ؛

د ومن أراد اقبال الناس عليه بالمحبة والهبة والتعظيم له في قلوبهم  
فعلیه بقراءة هذه الآية الشريفة عقب الصلاة اربعمئة وخمسين مرة ثم يتلو  
بعدها هذا الدعاء الجليل سبعة الاف مرة فانه يحصل له من الخير  
ما لا تدركه الافهام وهي هذه د بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا  
ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم يا الله - ثلاثا - يا رحمن - ثلاثا - يا رحيم  
- ثلاثا - لا تكلني إلى نفسي في حفظ ما ملكتني مما انت اعلم به مني ، وامدني  
برقيقة من رقائق اسمك الحفيظ الذي حفظت به نظام الموجودات واكسني  
بدرع من كفايتك وقلدني سيفاً من نصرك وحمايتك وتوجني بتاج  
عزك ومهابتك وكرمك وركبني مركب النجاة في الحيا وبعد المات بحق  
خجش تطخذ وامدني برقيقة من رقائق اسمك القهار تدفع عني بها من  
ارادني بسوء من جميع المؤذيات وتولني بولاية العزيز تخضع لي بها كل  
جبار عنيد وشیطان مريد يا الله يا عزيز يا جبار - ثلاثا - الق على من زينتك  
ومن محبتك وكرامتك ومن حضرة ربوبيتك ما تهربه العقول وتذل به  
النفوس وتخضع له الرقاب وترق له الابصار وتبدد دونه الافكار  
ويصغر له كل متكبر جبار وتسخر له كل ملك قهار يا الله يا ملك يا عزيز  
يا جبار - ثلاثا - يا الله يا واحد يا احد يا قهار - ثلاثا - اللهم سخر لي جميع خلقك  
كما سخر البحر لسيدنا موسى عليه السلام ولين لي قلوبهم كما لينت الحديد  
لداود عليه السلام فانهم لا ينطقون إلا بإذنك ، نواصيهم في قبضتك  
وقلوبهم في يدك تصرفها كيف شئت يا مقلب القلوب - ثلاثا - يا علام  
الغيوب - ثلاثا - اطفأت غضبهم بلا اله إلا الله استجلبت محبتهم بسيدنا

ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما راينه اكبرنه وقطعن ايدينه وقلن حاش لله ما هذا بشرا ان هذا إلا ملك كريم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، ويكون ذلك في جوف الليل ، ثم تصلى ست ركعات فاذا سلئت تقرأ الدعاء تسعمائة وخمسين مرة ، وفي حال قراءتك للدعاء تصور المطلوب بين عينيك كأنك تجذبه إليك ، فاذا وفيت العدد المطلوب تقرأ هذه الآيات سبعا وهي : يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله . لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم انه عزيز حكيم ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ، تقرأ هذه الآيات سبعا وأنت في كل ذلك تبخر بالجاوى واللبان الذكر .

ثم طويت الورق ووضعت في جيبي وخرجت إلى السوق ، وقد بدأت أشعر كأنى فوق الناس ، أو كأنى أمشى في السحاب ، واشتريت قليلا من الجاوى واللبان والفحم ، وخرجت على الفتاة وأنا عائد إلى البيت ، فلما رأتنى أحمل هذه الاشياء ضحككت وقالت : أترأك صرت خادما ؟ مبروك ان شاء ، فألقيت إليها نظرة عطف مشوبة بالكبر ، وقلت ملغزا ويدي على جيبي : أترين هذا الجبيل ؟ - وأشرت إليه - سيحمل الليل إليك صوتا منه ، ومضيت غير عابء بضحكها وسخرها .

ولا أطيل ، خلوت بقية النهار إلى نفسي حتى فرغت عما فرضت ، والفائدة الأولى ، ثم قت بعد العصر بقليل وفي اعتقادي إنى قد اختفيت عن أعين الناس ، وقصدت إلى حيث الحمار مقيد فكككت القيد وأسرجته

وألمجته ووضعت عليه « خرجاً » فيه ما يلزم من مواد البخور وأعواد  
التقاب والفحم وسبحة وموقد صغيراً وإبريقاً فيه ماء ، ووضعت فوق  
« الخرج » فروة صغيرة لجلوسى ، ثم ركبت الحمار بعد أن صار أعلى  
من البغل وسرت به بين المساكن إلى الجبل ، وكان الناس قد ألفوا منى هذا  
الخروج ، فلم يلتفت إلى أحد ، ولكنى كنت أعجب لهم فى ذلك اليوم كيف  
لا يدعهم أن يروا الحمار سائراً وحده وليس عليه راكب ؟ وعلت ذلك  
بأن السر الذى أخفاني عن أبصارهم لابد أن يكون قد امتد إلى الحمار  
أيضاً فتوارى مثلى عن العيون ، فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً وأضحك ، واتفق  
إنى مررت بشيخ كليل البصر وإن كان فيما ترى العين سليم النظر - ولكنى  
لم أكن أعرف ذلك - فحككت له أنفى بسبابتى ورحت أخرج له لسانى وأمط  
شفتى تحت أنفى فلما لم أجده التفت إلى صفقت من فرط الجذل ، ففرع  
الرجل قليلاً فقلت لنفسى سمع الصوت ، ولم ير الشخص فحق له أن  
يفزع ، فطنى بى الطرب ولم أعد أطيق هذه المشية الهينة ، فضربت الحمار فضى  
يعدو بى إلى الجبل . وهناك فى سفحه ترجلت وربطته إلى حجر على باب كهف  
صغير كنا - وأعنى غلبان الحى - نقيم فيه إذا حمت الشمس ، وفرشت  
الفروة فى جوف الغار ووضعت الفحم فى الموقد وأشعلت فيه النار وتركته  
للريح قليلاً لتضرمه ، واستلقيت أنا على الأرض ، وانطلقت أفكر فيما سيكون  
من أمر الفتاة معى بعد أن أفرغ من العمل ، وجمع بى الخيال فبدأ لى  
كأنى فى التهليل والتسبيح والدعاء فجاءنى رجل وجلس عن يمينى لم أر فى  
زمانى أحسن منه ولا أطيب ريحاً فقلت : من أنت ؟ قال : أنا الخضر جئتك  
حبا فى الله عز وجل وعندى هدية أريد أن أهديها إليك فقلت : وماهى

قال : هي أن تقرأ . فقاطعتہ وقلت : كفى . كفى . لقد بچ صوتی من القراءة  
فدع هذا وهات لى . . .

ولم يعجبني هذا ، فاختصرت الحكاية وجعلت الخضر يقوم مغضباً  
وأنا لا أعبأ شيئاً ، وعدلت بالخيال إلى سواء فتصورت الفتاة تهب  
من النوم مذعورة تلهج باسمي ويهتف بها هاتف أن اخرجي إلى مكان  
كذا في سفح الجبل ، فتخرج في ظلام الليل حافية عارية الرأس في ثياب  
النوم ولا تزان تجرى حتى تبلغ الكهف دامية القدمين من وخز الحصى  
والرمال ، فتقف بالباب وتناديني فأدع القراءة وأصيح من ؟

فتقول فلانة ( أو لعل الأحسن أن تقول حبيبتيك فلانة ؟ )

فأقول « ماذا يجيء بك إلى هنا ،

فتقول « لم أطق صبراً ،

بل اجعلها تقول « رأيتك في نومي ناظراً إلى محرقاً في جذبتني عيناك

ولم أزل أسير على ضوئها حتى جئت إليك ،

فأقسو عليها وأتصف لنفسي منها وأؤدبها غير أدب الصباح حين

تهكمت على وهأتني بأن صرت خادماً وأقول لها « ارجعي من حيث

جئت فما بي حاجة إليك ،

فتجثو على ركبتيها وتتوسل إلى أن أدعها ولو عند قدمي . . .

ولم يعجبني أن ألتصورها تجثو عند قدمي ، فقد كنت رقيق القلب

مهذب النفس فغيرت الموقف واعتضت منه آخر فشرعت أغازلها تليحاً

لا تصرّيحاً ، وأصف لها جارة دميمة الساقين ضخمة القدمين فتسألني  
ماذا تعنى ؟

فأقول أعنى ان للساق الجميلة سحرها

فتقول « ولكن ماذا يعنك من ساق هذه الفتاة ؟ »

فأقول « إنها تفسد على اليوم كله حين أراها ، وأخشى جداً أن  
تفسد لى صحتى »

فتقول « إنك مضحك ولست أفهمك »

فأقول « تصورى هذه الفتاة التى سلبتها الطبيعة كل مفاتن المرأة  
كيف يكون لها لو أن الشهرة ( المودة ) كانت تقضى بأن تكون ثياب  
النساء قصيرة ؟ كيف تجرؤ أن تبدى ساقها لعيون الناس ؟ »

ثم أطرق برهة فتردنى إليها بسؤالها عنى ماذا بى ؟

فأقول « بى هذه الطبيعة التى تأبى إلا أن تخرج إلى الدنيا  
مثل هذا التشويه »

فتقول « لعل الفتاة سعيدة لا تظن إلى عيبها »

فأقول « سعيدة ؟ أتكونين أنت سعيدة لو كنت مثلها ؟ »

فتسرى فى بدنها رعدة خفيفة فأكر عليها بقولى .

« بأى حق تمنحك الطبيعة كل ماحببتك من المفاتن وتسلب تلك  
المسكينة كل هذا الذى ضننت به عليها ؟ »

فتتهلل أسارير وجهها وتقول « ولكن لعلها لا تكثر لذلك »

فأقول جاداً : أين الفتاة التي لا تحفل أن تكون دميعة ؟  
تصورى  
مالابد أن يصيبها من الألم حين تراك ؟

فترفع عينها إلى وتحقق في وجهي لتقرأ فيه المعنى الذي أرى إليه  
والذي يغالطها صوتي في حقيقته وأمضى أنا في حديثي فأقول :

« إن كل ما جادت به الطبيعة عليك ينقصها ... » فتقاطعتني وتقول :  
« ولكن ما ذنبى أنا حتى تحطم لى رأسى بها ؟ »

فأقول معتذراً : « هل ضايقتك بحديثها ؟ إني آسف . ولكن هذه  
المناظر تستفز نفسى وتثير سخطى كأنى وحش ،

فتقول : « ألا تظن أنك قد تقيء إلى السكينة والهدوء إذا تركتك وحدك ؟ »  
فأنهض وأقول : « لا لا لا ! يا لها من فكرة شنيعة . »

فتقول : « إنك على ما يظهر ... »

فأقاطعها وأقول : « سأنسى ساقها ولا أفكر إلا ... »

ولكننى لم أشأ أن أعترف لها حتى في الخيال ولم يرقنى هذا الحوار  
وما فيه من اللف والدوران، فغيرت المنظر وحولت الصحراء المحيطة بى  
جنة فيحاء حافلة بالشجر حارة بالزهر، وتصورت نفسى أطوف فيها باحثاً  
عن فتاتى ، ثم إذا بى أرى ثوبها فأمضى إليها على أطراف أصابعى ،  
فيعترضنى حاجز من النبات الكثيف الشائك فيخطر لى أن أتسلل إليها  
حتى أصير إلى جانبها قبل أن تشعر بى، ولكن النبات المتشابك يحيط بى  
أشواكه وأنا أعالج اختراقها وتسمعنى هى فتدير وجهها إلى ناحيتى



قراني ، فتصبغ الحرة وجهها - ومن عنقها إلى جبينها - ويعبث النسيم  
بشعرها ويطير على وجهها وكنفها فتمسحه بكفها وترده عن جبينها، ثم تقف  
ويداها في جانبي خصرها، وشفتاها مفترقتان من المفاجأة، وكأنها تحاول  
أن تعلق أنفاسها بخافة أن تذهب زفرة بالسرور المبالغ الذي شاع  
في كيانها حين رأتني .

ثم تهمس « ابر... اهم »  
فأصيح وأنا اعالج من أسر الاشواك « لقد سبحت هنا ،  
فتقول « لقد قلت لى انك لن تأتى قبل اسبوعين ثم هذا أنت ،  
فأقول « إذا لم تأت إلى نجدتى فلن اجيء إليك قبل عام ،  
فتضحك ويسرها ما أنا فيه فأصيح بها « مهلا ريثما أتخلص ،  
وأحاول الخلاص فأزيد تورطاً، فتصفق وقد أمتعها منظر اعتقالي  
وتقول « لن تنفذ أبداً من هنا . فارجع . ذلك خير وأسرع ،  
وتخزنى شوكة فأهيب بها أن تنجدنى فتضحك وتقول « إن منظر ك  
ظريف . لست هناك مرآة فترى نفسك فيها ،

فأضحك من نفسي وأقول لها « إني لم امش كل هذه المسافة ليكون  
منظرى مضحكا . وما أراى استطيع الآن ان احرك اصبعاً فإن الشوك  
يتلقانى من كل ناحية . بالله نحى هذه الشوكة عن ذقنى فإنها تكاد تقتلنى ،  
وترى الدم سائلا من ذقنى فيدركها العطف على ، فتتحى بالشوك  
بيديها عن وجهى وتضغظه بكفها فيدنو وجهها منى ، وتصبح عيناى

في عينيها ، وأننى قبالة أنفها ، وفيها امام فى ، وقرأ كل منا في عيني  
صاحبه من آيات الحب ما لاسدليل إلى العبارة عنه ، ثم يدور رأسها ،  
وتهم نظرتها وتهوى على فى بفمها ، ويحط في هذه الساعة عصيفير  
على غصن وينطلق يغرد .

ولما بلغت إلى هنا فيما تخيلت وبينما انا اتذوق القبضة التي تصورنا  
مطبوعة على فى ، نهق الحمار ! فانتبهت مذعوراً من حلبي اللذيذ !  
ومحيت الصور الفاتنة وانتسخت الخيالات الانيقة المعجبة وردنى الصوت  
المنكر إلى ماجئت من اجله ، فقامت متاثلاً وفرشت الفروة في أرض  
الكهف واطلقت البخور في الموقد ، وقت إلى الصلاة ، ثم شرعت  
في التلاوة على نحو ما حتمت الورقة .



ولا أدري ماذا أصابنى ، ولكن الذى أدريه انى ظلت اقرأ وأقرأ  
في جوف الليل واطلق بخور الجاوى واللبنان ، ثم لم اعد اعنى شيئاً .  
ولما قت في الصباح كان ضوء الشمس قد غمر السهل والجبل ، فخرجت  
من الغار وأنا لأفهم ، وأدري عيني في كسل وقتور ثم تذكرت الحمار ،  
فمد دى في عروقي ، وأحسست العرق البارد يتصبب . أين ذهب ؟  
وكيف يفك القيد عن ارجله ويحل اللجام عن الصخرة ؟  
ولا خير في الإطالة فقد سرقه اللصوص وأنا ملقى كالجثة في جوف  
الغار ، بارك الله في جدى وفوائده . ! .

## الفروسية

دعينا مرة — أنا وطائفة من الاخوان — إلى قضاء يومين في ضيعة أحدهم ، وكانت قريبة من إحدى الضواحي فركبنا القطار إلى ... وهناك وجدنا طائفة شتى من الخيل والبغال والخيول ، فتوهمت في أول الأمر أن هناك سوقا للدواب أو معرضا لها . ثم علمت أنها لركوبنا . فاخترت من بينها حماراً صغيراً وهممت بامتطائه ، ولكن صاحب الضيعة وداعينا عز عليه أن يركب ( المازني ) حماراً ، وجاءني بجواد أصيل وأقسم على لأركبته . فاستحييت أن أقول له أنني أخاف ركوبه ، وأنه لا عهد لي بالخيل ، ودنوت من بعض الخدم وهمست في أذنه هذا السؤال .

« قل لي . كيف تتركب هذا الحصان ؟ » .

فتأملت ملياً ثم قال وعلى فمه طيف ابتسامة .

« على ذيله ! » .

قلت « على ماذا ؟ » .

قال « على ذيله » .

وأشاح عني بوجهه . فذهبت إلى الجواد وأدريت عيني في ذيله ثم هزرت رأسي وعدت إلى الخادم أسأله :  
« ألا تظن يا صاحبي أن الاحزم أن أمتطيه قريباً من العنق لاستطيع عند الحاجة أن أطوقه بذراعي ؟ » .

فلم يزد الرجل على أن قال « ربما ، وانصرف عني إلى سوای ، وكنا جميعاً في هرج ومرج نصيح ونضحك ، وكان لابد أن أفعل شيئاً فنأديت مضيفنا وقلت له :

« أريد سلماً . »

قال في دهشة — « سلماً ؟ ما حاجتك إليه ؟ » .

قلت « حاجتي إليه إنني أريد أن أصعد إلى ظهر هذا المجلي يا صاحبي . » فضحك وقال « أنا أساعدك ، ودفعني على ظهر الجواد دفعة خيل إلى أنها ستلقيني على الأرض من الناحية الأخرى .

وسرنا مسافة على مهل ثم وخز أحدنا دابته فضت تعدو واستحث آخر مطيته ، وانطلق بها وراءه ، واقترب مني ثالث وأهوى على جوادى بعضاً معه ، فوثب الجواد وراح يسابق الريح — أو هكذا خيل إلى — وأنا أعلو وأهبط فوقه ، حتى أحسست أن أمعاني ستتقطع ، وأتلس يدي شيئاً أمسكه وأتعلق به فيفلت من قبضتي كل ما تصل إليه ، فارتيمت على عنقه وطوقتها ، وجعلت أنادي من حولى وأناشدهم الزمة والضمير والمروءة أن يقفوا هذا الشيطان . وأدرك أحد اخواني العطف على ، فصاح بي « ولكن كيف نفقه نحن راكبون ؟ » .

فعاظني منه هذا البله ولم يفتني ما في الموقف من فكاكة على الرغم من الألم الذى أعانيه وبما أتوقعه إذا ظل الجواد يركض بي ، فقلت له :

« يا أبله أنزل وأقبض على ذيل حصانك وشده . »

وكان أحد الخدم قد أدركنى وأمسك باللجام ورد الجواد ، فما أسرع ما انحدرت عنه ، وكأنما أعجبتني جلستى على الأرض ، فأخرجت سيجارة

وأشعلتها وذهبت أدخن ، وجاءني مضيفنا على أذنه فسألني :  
« أتتوى أن تقعد هنا إلى الأبد ؟ »  
فاغضيت عن سؤاله وقلت :  
« إن بي حاجة إلى الشعور بثبات الأرض بعد كل هذا التقلقل  
وتلك الزعزعة » .  
قال : « ولكنك لا تستطيع أن تظل جالساً هكذا . أن أماننا  
سير ساعة » .  
قلت : « سألحق بكم إذن ، أو أرجع إذا كان لابد من ركوب  
هذا الزلزال » .  
قال : « ولكن لا يليق أن تركب حماراً » .  
قلت : وقد صار في وسعي أن أضحك — « في وسعك أن تعلق  
ورقة تكتب فيها أنه جواد مطهم » .  
قال : « لا تمزح ، قم اركب حماري هذا » .  
قلت : « إذا كان الحمار عالياً فما الفرق بينه وبين الجواد ؟ » .  
قال : « بلهجة اليائس أو المنتقم — « إذن خذ هذا » .  
وأشار إلى جحش قبيح مهين يركبه خادم ، لا سرج عليه ولا لجام  
له ، فقممت إليه وامتطيته برؤية واحدة وبلا معين .  
واعترضتنا قناة عريضة عليها ألواح مثبتة تقوم مقام الجسر ، وبين  
الألواح ، والماء تحتها ، متر على الأقل فلما توسطها الجحش بدا له أن يقف ،  
وراقه منظر الماء ، فأجال فيه عينيه برهة ثم خطا إلى حافة الجسر —  
ولم يكن له حاجز — ومد عنقه إلى الماء ، فظننت أنه قصير النظر وأنه

بفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله في الماء واجتلاء طلعتة الهبة في صقاله ، ولكنهم قالوا الى انه كان يريد أن يشرب . فنزلت عنه وقلت له « يا عزيزي أن من دواعي أسنى أنى مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك . فإن ثيابي يفسدها الماء وهي غالية إذا كانت حياقي رخيصة » .

ولكنه بعد أن فكر قليلا غير رأيه ، إما لأن الصورة التي طالعتة في صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكشفني بها . فأدار وجهه ومضى غير ملتفت إلى ، غير أنى لحقت به بعد أن اجتاز الجسر ، وقلت له « تعال لا تهرب منى يا صاحبي » وكنت على ظهره قبل أن يتمكن من الاعتراض أو الاحتجاج أو الأفلات .

ويطول بنا الكلام إذا أردت أن أصف كل ما امتعنى به من الفكاهات العملية، فقد كان فيه عناد وصلف، وكان يأبى أن يتوسط الطريق ولا يرضيه إلا أن يحك جنبه في كل ما يلقاه من شجر أو عربة أو حائط، وكان ربما وقف وغرس رجله في الأرض . ونام . وتعودت منه ذلك وفطنت إلى أنه ذو مزاج مستقل ، فكنت أتركه واقفا حتى ينتبه من هذه الاغفاءات ، أو يعود إلى من سباحات عقله السقراطية ، فنستأنف المسير وحسي وحسب القراء أن أقول لهم أنى أسفت على فراقه لما انتهت الرحلة، وتمنيت لو أن صحبتنا كانت أطول .

## الطفولة الغريبة

أظنني كنت في الرابعة أو الخامسة ، فـأ أذكر على التحقيق كم كانت سنى- والطفل عندنا - أعنى في بلادنا - لا يفكر -أو على الأصح لا يسمح له أن يفكر في مثل هذه السن، ويخيل إلى الآن وأنا أدير عيني في تلك الأيام كأن وظيفة الآباء والأمهات كانت صرف الأبناء عن النظر والتفكير، والزامهم الجمود ونهيهـم عن كل حركة جسمية أو عقلية. والطفل - كما تعلم الآن - أكثر ما تكون حيويته في أعضائه ، فرغبته في الجرى والوثب وما إلى ذلك طبيعة، وهو أشد من الكبار صبرا على ذلك ولجاجة فيه لقلة ما يشغله غيره ، وهو جديد في هذه الدنيا فشوقه إلى معرفتها معقول ، ومن هنا مد يده إلى كل ما تقع عليه عينه وتناولـه وتقليبه وتحطيمه أو إفساده ، وليس التحطيم أو الإفساد غاية، ولكنها المعرفة ، والآباء يشفقون على أشياءهم من مغبة هذا التناول ، فيمنعون التجربة ويأخذون على المعرفة طريقها .

ولست أذكر أني هممت مرة باللعب إلا زجرني عنه واحد من الكبار ، أو مددت يدي إلى شيء إلا نهيت عن لمسه ، وما كان أصعب السكون المقضى على به ، بل ما أقل ما كان الجمود يرضيهم ! فأنا إذا لعبت « شقي » ، وإذا سكنت فلا شك أني مريض ! وكان ملجئى الوحيد أني ، هو وحده الذى كان يبدو لى أنه يفهم ! وقلبا كنت أجالسه لأنه رجل ، والرجل في ذلك العصر ، مكانه بين الرجال لا بين الأطفال

والنساء ، حتى الأكل كان يتناوله وحده، أو مع ضيوفه في «منظرة» الرجال . حتى القهوة تصنع وترسل إليه . فهو في منزله وحده ، وكل من في البيت يخدمه حتى أمى . بل حتى أمه هو . يستيقظ أهل البيت ويكون هو لا يزال نائماً . فالكلام همس ، والسير على أطراف الأصابع ، والأطفال يحملون إلى مكان قصي من تلك الدور القديمة الواسعة لثلاث توقيظه ضوضاؤهم . ثم يفتح عينيه ويتثائب فيقلب السكون جلبة ، هذه تجيء بالطشت والأبريق للوضوء ، وهذه تعد الشاي ، وتلك تهيب الطعام ، وكأنما يعتمد كل إنسان أن يسمعه صوته ويثبت له أنه يتحرك في خدمته ، فالأصوات عالية ، والنداءات متتابعة ، «والقباقيب» مليوسة والأرجل تدب ، ويكون الشيء المطلوب تحت أنف الطالب فيقطع المكان ذاهباً وآيأ عشر مرات قبل أن يمد يده إليه ، ويصيح وينادي ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه ، ويحاسب كل من في البيت على اختفائه ويتوعد وينذر ، حتى إذا ظهر - وهو أدنى شيء منهم جميعاً - انطلق طالبه المتعاضى عنه يصف الإهمال والعسى بما يفتح الله به عليه . ثم تقص هذه الحكاية بتفصيل واف شاف لآبى وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الإبطاء ، عليه والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت ، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها ، والتبرم بهذه المتعبات التي تحفل بها ساعات الليل والنهار .

ولا أزال أذكر «علقة» من أجل هذا ، وكانت أمى تطلب الطشت من الحمام والأبريق على بابها ، فاحتملت الخادمة الطشت وذهبت به ولم تر الأبريق ، فذهبت تسأل عنه خادمة أخرى أصغر منها وتصيح بها



« أين وضعت الأبريق يا ملعونة ؟ »

فقالت الصغرى فى ذلة وخوف ولم أره والله ! »

فصرخت الكبرى « كيف لم تريه ؟ لقد وضعته بيدي فى الحمام  
فهل أخذه العفارىت ؟! »

الصغرى « والله العظيم والله العظيم .. وحياة النبى .. »

الكبرى « لا تحلى يا ملعونة . سيصيبك العمى يوما من الأيام من  
كثرة الحلف كذبا . أقول لك هاأى الأبريق وإلا صار يومك أسود ؟! »

أمى : بصوت عال جدا - « اجنتما ؟ ما هذه الضجة ؟ ألا تستحيان  
أن تتصايحا هكذا وسيدكا فى البيت ؟ »

الكبرى : يا سيدتى لقد أضاعت هذه البنث الأبريق . وانظرى  
كيف تخلف انها لم تره .

أمى : اين يا بنت الأبريق ؟

الصغرى : والله العظيم والله العظيم .. والله .. و ..

أمى : ألم اقل لك كفى عن الحلف .

ودفعتهما بيدها واطلقتهما لتبحث عن الأبريق فدخلت المسكينة  
ووقفت بباب الحمام واستندت كتفها إلى الحائط ولكنها لم تبحث عن  
الأبريق ، وكان يجانها عن مسافة شبرين منها ، بل وقفت تبكى لا كما يبكى  
الناس ، بل بمنجرتها دون عينيها . اعنى انها كانت تخرج مثل صوت  
الباكى المعول ولكن عينيها جامدتان .

ودخلت في أثرها الخادمة الأخرى وأمی وراهها . وعلا الضجيج وكثر الكلام ، وكنت أنا أشاهد هذا كله وأرى الابريق ، ولكني كنت مقتونا بهذا الحوار الذي يدور على لاشيء ، فلم أدلم على مكانه ، ولو إني تكلمت لضاع صوتي الصغير ولغرق في طوفان هذه الضوضاء ، على إني لم البث إن شعرت كأن رأسي سيتشم وعجزت عن احتمال هذه الحال ، وبدالي — لسوء الحظ — إني حقيق بأن يكون لي من احترام النساء للرجال حظ ولو قليلا قياسا على ما أراه من اجلالهن لأبي، فصحت بهن — وإمی في جملتهن — .

ويا للعمى ! ألا ترين الابريق وهو تحت انوفكن ؟ ما هذه الضجة الفارغة ؟ لقد أوجعتن رأسي ! د .  
فكان جزائي — كما أسلفت — علقه .

\* \* \*

نعم كان المنزل جحيم الطفل . فهو مطالب بأن يكون له عقل الكبار واتزانهم وفهمهم ، ولكنه محروم من مزاياهم ولا يعامل معاملتهم . وكل شيء يصدر عنه معيب وخطأ فاللعب عيب ، والصمت عيب ، والتهويم في المجلس عيب ، والارقي عيب ، والاشتفهام عيب ، ولا شيء فيما يرى الطفل محمود مشكور . ماتت بنت خادمتنا — وكانت في مثل سني — ولم أعلم أنها ماتت — لأنهم أجلونى عن البيت وارسلونى إلى عمتي ، فلما عدت ولم أجدها سألت عنها لأنى افتقدتها ، فكان كل من أستفسر منه عن اختفائها يتجههم لي وينهرني عن السؤال لأنه عيب . فذهبت إلى أبي ، وكان حلما صبوراً رضى الخلق ، فسألته عنها فأخبرني أنها ماتت . فعميت ولم

أفهم كيف تجرؤ أن تموت . فسألني أبي بدوره عن سر عجبى . فقلت له  
« لأنها صغيرة » .

قال « ولكن الموت ينزل بالكبار والصغار على السواء » .  
فألححت وقلت « ولكن يا أبى أنها لا تزال صغيرة فكيف يجوز  
أن تموت ؟ » .

قال « يا بنى لا اعتراض على قضاء الله »  
قلت مصرا ، « ولكنها صغيرة وهذا عيب »  
فضحك ومسح رأسى بكفه فلم أزد إلا لجاجة وقلت « يا أبى. هل تسمح  
لى أن أفهمها أن هذا عيب وانها لا يصح أن تموت ؟ »  
قال وقد ضجر على ما يظهر، وإن ظل يتنسم « يا بنى كيف يكون الموت عيباً؟ »  
قلت مستغرباً - اليس الموت عيباً ؟  
قال « كلا . أنها آجال »

فأعجبني أن يكون الموت آجالاً وطربت جداً . ودنوت منه ووضعت  
كفى على خديه وقلت وقد خيل إلى أنى ظفرت بملهاة جديدة « اذن ليس  
من العيب أن أموت أنا أيضا »

فصاح بى « أعوذ بالله » واكفهر وجهه لا أدري لماذا « اياك أن تقول  
كلاماً كهذا مرة أخرى »

لا أدري لماذا ! . . . لقد فهمت . . . ولكن بعد سنوات، ترى ألم يكن  
فى الوسع اختصارها .

وصار لى اخ صغير . لم اره حين جاء لانى اجليت عن البيت، فلم أكن

في استقباله . ولما عدت وأخبروني وسألت عنه من أين جاءوا به قالوا، أو  
فهمت أنا منهم ، أنه من عند الله ، وأن الله هو الذي يرزق الآباء، فاقنعت  
ورحت بعدها أتوقع أن اتلق كل يوم من عند الله اخا جديداً وسأني أن  
يرزقني الله اخا لا اختا

فسألت أبي :

- لماذا لم يرسل الله لي اختا بدلاً من هذا الأخ ؟

قال - هذه مشيئة الله ولا حيلة لنا فيها

قلت - ولكني أريد اختا . .

فقال - دع الله

فلبثت بعدها أدعو الله ولا سيما قبيل النوم ، وكنت أتوقع في كل  
مرة أن أصبح فأجد الاخت المرجوة تحت السرير أو في الدولاب أو  
بجانبي ، ولكن الله لم يستجب لي قط



وكان في البيت اثنان لاراهاما أبداً وان كان ذكرهما على لسان أبي وأمي،  
وهما د الست ، و د الافندي ، فأبي يقول للخادمة مثلاً قولي كذا أو كذا  
د الست ، ، ويتحدث في أوقات شتى ولا سيما حين يكون معه رجال من  
أقربائنا عن هذه د الست ، ، وأمي لاتفتأ تقول د الافندي قال - أو الافندي  
أتى - أو الافندي خرج ، فأعجب ابن هما ؟ ولماذا لا أراهما ؟ وأصعد إلى  
السطح باحثاً عنها فلا أجدهما ، وادخل كل غرفة فلا أهدى إلى أثرهما ،  
وأنزل إلى فناء الدار فلا التقي بهما . اين يناماان ياترى ؟ ماذا يأكلان ؟ الا

يظهر ان أبدا؟ وعلى كثرة ما فكرت في أمرهما وبحث عنها لم يفتح الله علي بخير من.. انها لا محالة يلبسان د طاقيه الاخفاء ، ، ولشد ما كان يلج بي الشوق الى رؤيتهما، يدركني العطف عليهما أيضا ! وكثيرا ما كنت أقوم من النوم على صوت - لعله موهوم - فاتخيل انهما داخلان، وأرهف سمعي وانشر أذني في الليل وأفتح عيني جدا وأحدق في الظلام، وقد قمت على ذراع ، وربما تسلفت الى كل غرفة لعل أبصرهما ، ناسيا في سبيلهما مخاوفي وما تثيره الظلمة ، في نفوس الاطفال.

واتفق مرة انا كنا جميعا جلوسا في غرفة ابي وكان مريضا - فدخلت الخادمة فأمرت شيئا إلى أمي فقالت لها هذه د اخبريه أن الافندي مريض ، فصعدت روجي إلى حلقى وشعرت بالاسف على د الافندي ، والالم له ، والفرح أيضا لان مرضه قد يتيح لي أن أراه أخيرا ..

ودنوت من أبي - وكنت عليه أجرا، فابتسم لي ومد يده فوضعتها على كتفي فاطرقت برهة ثم رفعت عيني اليه وقلت -  
« بابا ،

قال د نعم ، وجذبني اليه في رفق وعطف  
قلت د كيف صحه الافندي ،

فضحكوا جميعا - ابي وأمي وجدتي وعمتي و . . لا أدري من أيضا . وقبلني أبي ، ولكنه لم يجبني لاهو ولا سواء . فلم أفهم هذا، وأحسست بالقيظ ، ورحت أنظر في وجوههم نظر المحتق . ثم تولاني العناد، فعدت إلى أبي أسأله عن صحة د الافندي ، فنظر أبي إلى أمي فتناولت هذه يدي وقالت دعيب الاولى كانت عفوا . وقد فانت ولكن لا يليق أن تكررهما،

فكدت أجن . لماذا يخفون عني الأفندي والست وهما يراهما كل إنسان  
سواي ، ويحادثهما علي ما يظهر لي بما أسمع ؟ لماذا أحرم وحدي أن  
أبصرهما وأكلمهما

فقلت « ولكنني أريد أن أرى الأفندي ،

فقلت أُمي « عيب قلت لك عيب ،

وفي هذه اللحظة دخل جدي علي مهل ، ويظهر أنه سمع أُمي تنهزني وكان  
شديد الحنو علي فسأل « ماله ؟ ،

فقصوا عليه الحكاية . فابتسم وأجلسني علي ركبتيه ولم يزل بي حتي  
سرى عني ، وجفت دموع الغيظ التي كانت تترقق في جفني فشرحت له  
المسألة وكشفت له عن جهودي التي بذلتها في الاهتداء إلي . « الست  
والأفندي ، ولم يبق في الغرفة أحد لم يضحك مني . ولكنني كنت فرحا  
باصغاء جدي وتشجيعه لي ، وما كان يبدو علي وجهه من الاغباط والجلد ،  
فلم أعبأ بالضحك ، ولما فرغت سأله « والان هل ستخفيهما أنت أيضا  
عني ؟ ،

قال « لا . لقد أخطأوا معك يا بني . وكان حقهم أن يدلوك ،

واستغنييت بعد ذلك عن البحث والتنقيب فقد عرفت « الست  
والأفندي ، وضحكت أيضا لما عرفتهما .

## مقتطفات من مذكرات حواء

•

( تنبيه ) هذه المذكرات موضوعة على نسق ( مذكرات آدم ) للكاتب الأمريكى مارك توين ( سامويل كيمينز ) وهى تشبهها فى الأسلوب الفكاهى، وقد جاريته فى أشياء لم أدر كيف أخالفه فيها ، مثل إنكار آدم أن حواء مخلوقة من ضلع من جنبه ، واستغرابه بكاءها — والبكاء أشبه بالانوثة - وعدم فهمه الامومة ألخ . ألخ . وقد أردت أن أمثل بهذه المذكرات لما يأتى :

أولاً : أن الخلود يتمتع معه الإحساس الجنىسى، وأن قضاء الموت هو الذى يثير هذا الإحساس وينشئ غيره أيضاً .

ثانياً : أن المرأة مخلوقة للنوع فالغريزة الجنسية فيها أقوى منها فى الرجل .  
ثالثاً : أن المرأة أقدم معجم للغة ، فهى التى وضعت الاسماء ونحتت واشتقت وصقلت الألفاظ بكثرة الاستعمال .

رابعاً : أن الخجل من مقتضيات المعرفة والإدراك .

خامساً : أن الامومة أقوى وأبرز من الأبوة، لأن المرأة هى الاداة لحفظ النوع .

وقد تناولت هذه المعانى من قبل فى مقالات عدة ، نشر بعضها فى

( حصاد الهشيم ) مثل ( الجمال في نظر المرأة ) و ( مقتضيات الخلود )  
وفي ( قبض الريح ) مثل ( المرأة واللغة أول معجم وأقدم ديوان )  
ومقالات أخرى نشرتها في ( السياسة الأسبوعية ) ولم تجمع بعد في كتاب .

## ١ - في الجنة

السبت . وجدت أن ما أغراني به آدم من كتابة المذكرات اليومية  
قد شغلني عنه، وأتاح له أن يطوف في الجنة وحده ، وهو لا يفتأ يصبحني  
بالسؤال عن مذكرات اليوم السابق هل دونتها ، وينصح لي بأن أكتبها  
قبل أن أنسى ما حدث ، ولا أكاد أشرع في الكتابة حتى أراه ينسل  
ويذهب لا أدري إلى أين ، ومن أجل هذا عقدت النية على ألا أكتب  
إلا في الليل بعد أن ينام .

الاثنين : آدم لغزلا أكاد أفهمه ، لم يكن يعرف حتى أن اسمه آدم ،  
ومن قوله أنه لا يشعر بالحاجة إلى اسم ما ، ولما قلت له يوما إن اسمي  
حواء قال ( ربما ! ) أليس هذا منه عجيبي ؟ وأعجب من ذلك أني قلت له  
أن عليه من الآن فصاعدا أن يدعوني باسمي ، فانه أعذب في أذني من  
( هش هش ) التي لا يزال يفتح فمه بها على ، فقال أنه يقصد — حين  
يصيح بي ( هش هش ) ، أن أذهب عنه لا أن آتي إليه ، وأنه  
لا يحتاج أن يناديني أو يدعوني لأنني لا أكاد أفارقه ، فن العبت أن يكون  
لي اسم إذا كانت فرصة استعماله لا تعرض أبداً ، فلما احتججت عليه بأن  
لكل شيء في الجنة اسمه الذي يعرف به ، زعم اني أنا التي اخترعت هذه



الاسماء وأطلقتها على مسمياتها ، وأنه لا يدري لماذا اجشمه حفظ هذه  
الاسماء كلها وتصديع رأسه بها ، وزاد على ذلك أنه لا يرى هذه الاسماء  
منطبقة على الأشياء أو موافقة لها ، ودليله على هذا أنه ما من حيوان  
يجبني حين أدعوه باسمه ، ولكن هذا مع ذلك لا يعنيه، وإذا كان يروقني  
أن أكلف نفسي مشقة التسمية فانا وما اخترت لنفسي ، غير أنه يرجو  
منى إلا اشركه في هذا العبث .

وهذه أول مرة سمعت من آدم مثل هذا الكلام فخر في نفسي وآلمني  
فبكيت وتوجعت ، ولشد ما كانت دهشتي حين نهض آدم ودنا مني  
ورفع وجهي إليه وجعل يتأمل عيني ! بل لقد هم بأن يضع أصبعه في  
عيني، فنحيت يده عن وجهي وقلت له وقد غيض الغيظ والغضب عراقي  
« ألا تكفيك قسوة لسانك حتى تريد أن تفقأ عيني ؟ » .

فادعى أنه لا يفهم كلامي وزعم أنه إنما كان ينبغي أن يرى من أين  
يجيء الماء الذي يسيل من هذين الثقبين في وجهي . وقال أنه لم ير حيوانا  
آخر غيري يفيض الماء من ثقب وجهه ، فصدفت عنه وبني من الألم  
مالا أحسن وصفه . فلم أر أنه عيى بصدى عنه شيئا، وطال انتظارى أن  
يعود إلى ليغتذر، فخرجت من الكوخ أطلبه فالفيتة ممسكا هرة يحاول أن  
يمصر لها عينيها وهي تجاهد تريد التخلص من قبضته القوية ، فاخطفتها  
منه وسألته ( ما هذا الذي تصنع ؟ ) .

فلم يجبني على سؤالي ، ورفع إلى وجهها قرأت في أساريره الدهشة  
والملل وقال : « هاها ؟ أو جئت ورائي ؟ » .

فاعدت عليه السؤال فكان جوابه أنه أراد أن يعرف من أين يجيء  
الماء إلى هذه الثقوب التي أسميها العيون . فأيقنت أنه لم يكن يروم أن  
يفقأ عيني ، و صفحت عنه وزدت تعلقا به .

الثلاثاء : لا يزال آدم يضحك مني كلما خرجت إلى البركة لانظر  
فيها إلى نفسي ، ولا سيما بعد أن وقعت فيها وأنا أتأمل خيالي في صقالها .  
ليته ينظر في مائها الصافي مرة . اذن لكف عن هذه السخرية . وما أنسى  
يوم قتت فألفيتني راقدة في ظل وارقة الاظلال لغام ، وكيف ذهبت  
أعجب لنفسي : من عسى ان اكون ؟ واين انا وماذا جاء بي إلى هنا ؟  
وكيف كان ذلك ؟ وكان على مقربة مني كهف يتدفق منه الماء إلى بركة .  
فقصدت إليها وانطرحت على بساط الروض ، وجعلت انظر في الماء وإذا  
تحت عيني — في جوف الماء — صورة تنحني وترمقني ، فراجعت  
فارتدت مثلي ، فعدت أنظر ، فعادت تمدق في وجهي بعينين جميلتين  
يفيض منهما العطف والحب ، فلولا صوت رحيم هفا به النسيم إلى د ان  
ما ترين ليس إلا صورتك وخيالك ، ، لما انصرفت عن الماء إلى هذه  
الساعة ، وان آدم لقوى وجميل ، ولكن ذلك الخيال الذي يترامى لي في  
الماء الين واعذب .

الخميس : كل يوم يبدو لي من آدم خلق عجيب . كنت الومه واشكوه  
إلى نفسي وأؤنبه على هروبه مني واختفائه بين الأشجار ، وأقول له فيما  
أقول د اني انسى كل شيء حين اكون معك ، حتى الجنة لا اباليها ولا احفل  
ما فيها ، وان نسيم الصباح حين يهب بأصوات العصافير للنيذ ، وانه ليس

اطيب من ربا الارض بعد ان يجودها من السماء هاضب ، ولا ارق من  
مقدم الليل علينا بنجومه الزهر وقره السارى ، ولكن ما من شيء فى  
الارض ولا فى السماء يروقنى او يفتننى إذا لم تكن معى . فالعجب لك  
كيف تطاوعك نفسك على مجافاى والفرار منى وانا بعضك ؟ .

ففتح عينيه جداً وقال « بعضى ، ماذا تعنين ؟ » .

فقلت : « نعم بعضك ! الست قد خلقت من ضلع فى جنبك الأيسر؟  
فوثب إلى قدميه وقال :

« من ضلع فى جنبى ؟ من قال هذا ؟ »

قلت « انها الحقيقة » .

فرفع يده إلى صدره وجعل يمر بأصابعه على ضلوعه ويتحسسها بعناية،  
ثم نظر إلى وقال : « هذا غير صحيح . أن ضلوعى كاملة لا نقص فيها  
وقد عددتها أمامك »

الجمعة - قال لى آدم إن فى هذه التى اسمها « جنة عدن » أشياء كثيرة  
تسرعى النظر والسمع أيضاً ، ولكنى لا أنتبه إليها لأن لسانى لا يكف  
عن الدوران، وأضاف إلى ذلك أنى أنا المخلوق الوحيد الذى لا ينتفع بعينه  
وأذنيه . وانى أفسد عليه الطواف فى « الجنة » وأحيل المقام فيها كالقمام  
فى « ذلك المكان الآخر » .

وقد اغتنمت هذه الفرصة ونهت آدم إلى أنى « أنى » ، وإن عليه أن  
يكف عن مخاطبى أو الإشارة إلى بضمير المذكر ، فهز رأسه وقال : أنه

يشك فيما أقول، ولكن الأمر لا يعنيه وإنه سيتحرى مرضاقي ما دام إن هذا يسرنى، عسى أن يكف هذا الرضا من غرب لسانى الذى لا ينفك يعترض .

السبت - لم أكن أنوى أن أكتب اليوم شيئا . ولكنى عثرت بقصاصة بخط آدم قرأت فيها هذه العبارة : لقد كانت أيام الأسبوع كلها جمعا قبل أن يأتى هذا المخلوق الجديد الذى ننى عنى الراحة وهدوء اليال . . .

» بقية الكلام رديئة . ويظهر أن حواء كتبت تعليقها على عبارة آدم بسرعة وانفعال . على أنى مع هذا استطعت أن أقرأ الكلام ولكنى اعتذرت للقراء فانى ، أعلى بأبيننا الشيوخ عينا وأعقب اجلالا له من أن أسمح بنشر ماخطته أمنا المسكينه عنه فى ساعة من ساعات الغضب . »

الأحد - مواظبة آدم على الكتابة تدهشنى ، وتعليله لذلك ابعت على الدهشة . فهو يقول إنه يقتل الوقت بذلك وينبى عن نفسه الملل . الملل حقاً ؟ ألسنت معه أو نسنه ؟

الثلاثاء - كان اليوم مطيرا عاصفا فامتنع آدم عن الخروج من الكوخ، فتركته ومضيت إلى البركة غير أن المطر المنهمر شوه صورتي جداً ، فانكفأت عنها آسفة ، وأدركنى العطف على جرو صغير وجدته فى طريقى فحملته معى إلى الكوخ ، ولم أكد أدخل حتى انتهرنى آدم وأنبنى على ما يسميه حماقة الخروج فى مثل هذا الجو والرجوع بقدمين مثقلتين بالأوحال وتوسخ الكوخ بها . ثم سألنى عما أحل

فقلت له إنه جرو صغير أشفقت عليه من المطر والبرد . فقال : لست أفهم هذا الولع بالحيوانات الصغيرة وضمها إلى صدرك وتقبيلك أياها ومناجاتها بأصوات لا معنى لها ، وازعاجى بعوائها ونباحها وموائها . ، ثم انتزع منى الجرو وقذف به إلى الخارج .

الاربعاء - لست أنسى ما عشت نظرة الاحتقار التى رمانى بها اليوم آدم . كنت عند شجرة تين أقذف ثمرها بالحجارة . وحانت منى التفانة فإذا آدم يرشقنى بهذه النظرة فكأنه سمرنى بها إلى الأرض ، ثم دنا منى وهو يقول : هكذا ترمين ! ، وتناول حجراً وراح يقلدنى ويتثنى ويتعوج ويلقى الحجر فيقع عند قدميه . وبعد أن شبع من الزراية على والسخرية منى اعتدل وقال : هكذا يجب أن تفعل ، وسدد ساعده القوى وقذف الحجر فانطلق من يده يقول : فووو ، وهوى ، التين إلى الأرض وتركنى ومضى .

الخميس - يقول آدم إنه أخطأ حين علبنى ( الرماية ) كما يسميها ويزعم أن تعليمه اياى أغرانى بأشجار الفاكهة وإلى الآن أفرط فى أكلها وإننا مهددون بنفاد هذا الغذاء أو ( بالقحط ) كما يقول على طريقته فى المبالغة . وإنه على أى حال لا يتوقع خيراً من وراء حجبى للفاكهة .

السبت - مر اليوم بلا حادث يذكر سوى إن آدم وجدنى أتسلق الشجرة المحرمة فجذبنى بعنف وحذرني من الدنو منها .

الأحد - قمت من النوم فلم أجد آدم فذهبت أبحث عنه فلم اهتمد إلى مخبئه . وهذه رابع مرة يهرب فيها منى . فعدت إلى الكوخ متعبة وارتيمت

على الفراش الذى صنعه له من ورق التين ، إلا فى سبيل الله ما كلفت  
نفسى من أجله ! :

الاثنين - لا يزال آدم هارباً وقد حفيت قدماى . واقلقنى هذا  
الغياب الطويل الذى لا عهد لى ولاله به . أترأى ضل الطريق ؟ انه غريب  
الاطوار فلا يبعد أن يكون قد خرج من الجنة

الاثنين - بعد أسبوع كامل قضيته فى البحث وجدت آدم فى أقصى  
الشمال . لقد بنى له كوخاً صغيراً هناك : له الله فلولا الحية دلتنى على  
مكانه ... ولكن صبراً .

الثلاثاء - لم أكن احسب ان الحية تتكلم وتا الله ما أطيبها وأعذب  
لسانها واحلى حديثها . لا اكاد اضمها الى صدرى حين يصافح سمعى قولها  
« يا فتنة الدنيا ويا أجل ما فى السموات والأرض ويا أم البشر ، ولكن  
آدم يكرهها ويخافها ويحذرنى منها ، ويقول انها نذير سوء وان كان لا يكتمنى  
سروره بان وجدت من يحاذرنى غيره .

الأربعاء - كان آدم يتمشى اليوم وهو مطرق ويداه خلفه ويتمتم بكلام  
غير مسموع وليست هذه عادته فما رأيته يفعل ذلك من قبل . فتواريت  
خلف شجرة أراقبه ، فلما دنا منى سمعته يقول لنفسه « وماذا اخشى من  
الموت اذا أكلنا من الشجرة وحل الموت فى الدنيا ؟ ان الموت مرغوب  
فيه من أجل بعضهم على الأقل »  
فمن بعضهم هذا ؟ سأسأله عنه .

الخميس - قالت لى الحية انها لم تكن تتكلم ولم يكن لها عقل ولكنها

مرت بشجرة استطابت رانحتها فصعدت إلى أثمارها والوحوش ترمقها  
وتمد اعناقها فتقصر عن بلوغ الثمر، وكانت جائعة فالتهمت منها ما لا  
يحسب الحاسب فتغير كل شيء في عينها، ووجد لسانها السيل إلى الكلام،  
وإن كان قد بقي لها شكلها، فوجهت عقلها إلى التفكير والتدبير في كل مافي  
السماء والأرض وما بينهما وازدافت إلى ذلك - شكراً لها - أن كل مافي  
الدنيا من خير وجمال يجتمع في وجهي الملائكي، وانها لم تر لي نظيراً وإن  
هذا السحر الذي في عيني هو الذي جرأها على الظهور لي واغراها بأدمان  
النظر إلى. فسألته عن الشجرة أين هي فلما دلتني عليها إذا بها الشجرة  
المحرمة، فأنبأته بأن ثمرها محرم علينا. فأعربت عن استغرابها بأن تحرم  
علينا فاكهة الجنة، فبينت لها أن لنا أن نأكل ما نشاء من فاكهة الجنة  
ما خلا ما تحمل هذه الشجرة والاكتب علينا الموت. فقالت الحية كلاماً  
كثيراً معجباً مطرباً شربته اذنأى بلهفة، فجعلت ارمق الشجرة، ومنظرها وحده  
غواية، وفي اذن من الحية عذوبة حديثها، ومضى الوقت وأنا أستمع  
إلى الحية وأرى الشجرة موقرة بحملها الناضج واشم عبقة الطيب. وعرضني  
الجوع فامتدت يدي إلى الثمرة فقطقت واحدة ثم ثانيه ثم ثالثة  
فتفتحت، عيناي وابصرت العري الذي انا فيه، وقلت لنفسى في آية  
صورة ابدو لأدم؟ أو نبتة بما وقع لي وطراً على من التغير واشركه معي؟  
أم انفرد دونه بالعلم واسد بذلك النقص الذي منى به جنسى حتى اساو به  
وربما ففته، فاني ارى ضعفى يسترقنى له؟ وهذا حسن، ولكن الله هو  
الذى رآنى وعلم انى عصيته؟ والموت لا بد آت بعد ذلك ولا مهرب منه  
الآن، وهكذا سأذهب أنا ويخلق الله لأدم حواء أخرى تعيش معه وتسعد  
بجواره. كلا. كلا إلى أحب آدم واستطيع أن احتمل كل صنوف

الموت معه ، ولكنى لا أقوى على الحياة بدونه .

وثبتت خطواتى إلى الكوخ ولكنى لم أجد آدم، فدرت فى الجنة أبحث عنه فلم أعثر له على أثر ، واضطرت إلى الاختباء مراراً لأن الوحوش كانت تتقاتل ويأكل بعضها بعضاً ، ولم تعد تطيعنى كالعهد بها ، ففررت من الجنة بعد أن اختل فيها الأمن واضطرب حبل النظام ، واصبحت الأمور فيها فوضى ، وجاوزت حدودها إلى الأرض .

الأربعاء - بعد أربعة أيام طوال وجدت آدم فألتقيت عند قدميه الغصن الذى قطعته من الشجرة المحرمة مثقلاً بالتفاح الشهى ، فنظر إلى نظرة استغراب وسألنى عن هذا الورق الذى أستر به جسدى فقلت شتت عرف هذا متى أكلت من التفاح ، فانتزع منى وعرانى فنجلت فقال : لقد علمت أنك أكلت منه فقد هاجت الوحوش وهمت بأكلى ، فركبت حماراً فارها لم يزل يعدو بى حتى عدا عليه نمر فنجوت بجلدى ولما أكد ، ورأيت المقام فى هذه الجنة مستحيلاً فخرجت منها وسيان عندى الآن أن آكل أو لا آكل فهاى ما عندك فأتى جوعان .

وقضم قضمه وجعل يتذوقها ويقول ما أطيبها والله وإن كانت فى غير أوانها . ثم نظر إلى نفسه فأدرك أنه عار واستحيا فستر نفسه بالورق الذى نزعه عن جسدى ونظر إلى ثم أرخى طرفه وهو يقول « ماذا تعنين بالوقوف عارية هكذا ؟ اذهبي واسترى نفسك » ففعلت .

الخميس - اعترف لى آدم بأنه كان لا يحسن معاملتى ونحن فى الجنة وقال إن عذره هو أن المرء لم يكن يستطيع أن يحسن شيئاً فى تلك الجنة



وقد كان يخشى ألا الحق به ويتوقع أن تضيق الوحدة وتسقمه الوحشة  
وقبلى د وعرفنى ، لقد خسرت الجنة ولكنى ربحت آدم ...

## ٢ — بعد الخروج من الجنة

الثلاثاء - تالله ما أفسى آدم في هذه الأيام ! إنه لا يفتأ يعنفنى ويلعننى  
بـ يحمل على من أجل أن أكلنا من الشجرة المحرمة وخرجنا من الجنة ، وهو  
هو الذى اثنى على ذوقى لما أطعمته من التفاح ، وقال لى فيما قال د هاتى  
بأطيب هذه الفاكهة التى حرمتها ، وإذا كان هذا طعم ما حرم علينا  
فليت الشجرة المحرمة كانت عشراً ؟ ! وهلم بنا نلعب بعد هذا الطعام  
الشهى ، فاعرف جمالك قبل اليوم ألعب حواسى كما يفعل الآن .

ولم يدخر نظرة حب ولا تجميشة غزل ، وأعدائى وأهبنى فقاذفته  
ناراً بنار ، ثم تناول يدى ومضى بى إلى غدير ظليل الشاطئ " فاضطجعنا  
على البساط السندسى ، وثرنا حولنا وتحتنا وفوقنا عبق الزهر - الفل  
والياسمين والرجس والقرنفل - وروينا من الحب ، ثم عقد النعاس اجفائنا  
فنمنا ملء عيوننا . وباليقينا لم نقم ! فقد غدا على يلومنى ويتوجع عما صار  
إليه ، ويحن إلى ما كان فيه ، فقلت له أنه لو كان مكانى لفعل مثلى ، وذكرته  
بأنه كان فى الجنة يرمى إلى بالزمام ويلقى حبلى على غارى ، وسأله لماذا  
تركنى أفعل ما بدا لى ولم يأمرنى - وهو الرجل وأنا المرأة - أن أجتنب  
الشجرة ولا أقربها لقد كان سلوكه مغرياً لى ومشجعاً على اقتطاف هذه  
الثمرة المحرمة .

فثار بي يلغنى ويقول « أهذا جزاء حبى لك أيتها المرأة الكنود ؟  
الم يكن يسعنى ان ادعك وحدك للبوت الذى جلبته على نفسك، وأن  
انجو بنفسى فلا اتبعك ؟ اما والله لانت والحية سواء، وانك لالام منها  
وابعض، وما ينقصك إلا ان تكونى على مثل صورتها والوانها ليحذرك  
الخلائق جميعاً ولتتقيك ولا تغتر بصورتك السماوية إلا لماذا شامت  
حكمة الله ان يخلق هذه البدعة ولم يشأ ان يخلق الناس كلهم ذكرانا  
ويعمل الدنيا بهم إذا كان لا بد من خلقهم ؟ »

فبكيت واسترحته وعكفت على ركبتيه اقبلهما وامسح عليهما وجهى،  
فرئى لى ولان لى قلبه ، فتشجعت وادليت إليه برأين يكفلان لنا الراحة  
ويقيان ذريتنا المصائب التى كتبت عليهم بذنبتنا. فسألنى عنهما فقلت  
- الراى عندى - ما دام الموت لامفر منه الآن - ان نتحرر ، فنستريح  
ونترك الدنيا كما كانت، لا يعمرها احد من نسلنا، او ان تتحرى ألا نجى إلى  
الدنيا بنسل ، فنحرم الموت حقه ونقضى عليه هو بالموت جوعاً .

فقال آدم : يا بلهائ اتحسبين أن الله يتركنا نفعل شيئاً من ذلك ؟ لقد  
أخرجتنا مشورتك من الجنة وهوت بنا إلى هذه الأرض ، فأين ياترى  
تقذف بنا مشورتك الجديدة ؟ إذهبى . إذهبى !

بعد شهر - لست امل التجواب فى هذه الغابة الكثيفة . فإن لها  
لسحراً شديداً الاخذ . وقد ضللت فيها أمس وإن كنت لم أبعد عن  
الكوخ أكثر من فرسخ ، فنشط خيالى وراح يرينى أشباحاً ههنا وههنا  
بين الأشجار الغليظة الداخبة فى الهواء التى تحجب الشمس فلا ينفذ منها

شعاع . فوقفت برهة أفكر وأتخيل وأشرب نفسي روح المكان، فنعق فوق رأسي غراب ففرعت ثم غضبت على نفسي ، لأنى فرعت ورفعت طرفي فأبصرت الغراب على غصن فوق يصوب نظره إلى، فاستحييت أن يراني كأنما كان قد فاجأني في خلوقي ، فخدجته بنظري فخدجني بنظره ، ولم يحول منى عينه ، وكان كلانا صامتاً لا يقول شيئاً ، ثم تقدم الغراب بضغ خطوات على الغصن ليكون أقدر على تأمل ، ورفع جناحيه ودلى رأسه من بين كتفيه ، ونعق مرة أخرى نغمة أحسست أن لهجتها مهيبة مبطنة بالزراية، فلو انه كان يتكلم مثلي ومثل آدم ومثل الحية لما قال لي بأفصح مما قال : ماذا تصنعين هنا بالله ؟ ، وليس هذا من شأنه ولا كانت هذه الغابة له ، وما من حقه ان يخاطبنا بمثل هذه اللهجة ، ولكنى لم ارد عليه استنكافاً منى للنبأذة مع غراب اسحم ، وترفعاً عن المباشرة معه ، فلبث برهة يدير عينه في ، ورأسه ممدود إلى من تحت كتفيه ثم قذفني باهاتين اخريين لم افهم معناهما على وجه الدقة ، وان كانت دلالتهما واضحة . فلم أشأ أن اجاريه في بذاءته وامسكت عن دفع الالهانة . ويظهر ان حلبي أطمعه فقد رفع رأسه واطلق في الغابة نغمة تيلنت انها نداء فقد اجابه غراب آخر من قلب الغابة ، وراح ذاك يسأل وهذا يشرح له الموقف ، حتى ترك الغراب المدعو ما كان فيه وطار إليه وحط إلى جانبه فوق ، ومضى الغرابان الاسودان يتناعبان عنى ولا يحفلان وجودى ، فلو انى كنت بعيدة عنهما بحيث لا اسمعهما ولم اكن تحت اعينهما لما اساء الادب في حقى إلى هذا الحد، فخرت واربتكت، ثم بدا ان ادعهما وامضى في سبيلى واحسب ان الغرابين الوقحين قد سرتهما هزيمتى فقد مطا عنقهما وراحا

يضحكان مني ويرسلان خلقي الشتائم والإهانات حتى تواريت عنهما ،  
وإني لأعلم انهما غرابان لا أكثر ، ولكنه من المؤلم على كل حال ، بل  
بما يكوى غرور الإنسان أن يرى حتى الغراب يهزأ به ويتاجن عليه  
ويصيح به : ما أطول شعرك ؟ ، أو أليس لك ثوب تلبسينه غير هذا  
الجلد القديم ؟ ارفعى ذيله فانه يكنس الأرض ويثير الغبار .

ومن الغريب أني ألفت نفسي عند باب الكوخ قبل أن أفكر  
في الطريق الذي أسلكه ، وهكذا اهتدت رجلاى بعد أن ضل رأسى .  
لقد كنت أهم بالبكاء ولكن فرحى بالرجوع سالمة أنساني الدموع .

بعد أسبوعين — آدم يحمل على ويرهقنى بالعمل ويكتفى هو منه  
بالإشراف . ولا أدري ماذا يكلفه د الإشراف ، ولكن الذى أدريه إني  
مستعدة أن أقوم به عنه وأن أدع له ما أنا فيه ، وقد ثقلت وأراني أميل  
إلى التمرد ، وسأدعى المرضى غدا فإن لم تصلح الحال بعد فسأهرب واخترق  
في بعض الادغال ليعرف قدرى .

بعد خمسة أيام — هربت ثلاثة أيام ثم لم أطلق البعد عنه فرجعت  
إليه وادعيت انى كنت تائهة ، وقلت انى منهكة ولا أكاد أقوى على النهوض ،  
فخرج آدم متذمراً وغاب عني اليوم كله فكذت أجن من الشوق إليه ،  
وتبت من ذنبى واعترفت له بالحقيقة .

بعد ثمانية شهور — سميت قاييل ، وهو حلو أحمر لا شعر عليه غض  
اللحم وأكاد من فرحى به وحبى له أكله . وكان آدم قد خرج للصيد  
فلما عاد بعد أيام سألتى عنه ما هو ؟ فلم أدر كيف أقول وحلته إليه

وأدنيته من فة ليقبله، فظن انى أقدمه له طعاماً، ونحى وجهه وصدنى بيده وقال : أوحش أنا حتى اكله حياً ؟ ولما قلت له انى د وضعته ، وأنا عائدة إلى الكوخ لم يصدقنى وزعم انى «وجدته» . وقال إن به مشابهة منى ولكنه صغير جداً فهو على الأرجح حيوان جديد. وتناوله وجعل يقبله ويفحصه فبكى وصاح فاخطفته واحتملته وضممته إلى صدرى ولاطفته حتى ثاب إلى السكون .

ولما جاء الليل وبكى زعم آدم أن من الحماقة أن أبحن هذا الحيوان معنا ، وانه انما يبكى ويصيح ويخرج هذه الأصوات المنكرة لأنه يريد أن يعود إلى جماعته، وهم بأن يلقيه خارج الكوخ فعدوت ورامو صددته. فقال آدم إنه لا يفهم سلوكى هذا ولأنه لم يألف منى هذه العناية بالحيوانات الأخرى .

## من مذكرات آدم

د لقد تغيرت حواء حتى لا أكاد أنكرها ، مذ وجدت . هذا الحيوان الغريب الذى حضيت قدماى على غير جدوى فى البحث عن واحد آخر من مثله ، فهى لا تخرج الآن للصيد أو للاحتطاب ولا تكاد تعنى حتى بأعداد الطعام . ولا تخطو خطوة إلا وهذا الحيوان الغريب مضموم إلى صدرها أو محمول على كتفها ، وهو لا يكلفنا شيئاً لأنه لا يأكل ولا يشرب ، وهذا أغرب ما فيه . وأحسب حواء قد جنت فانها لا تفتأ من حين إلى حين تلقمه نديها فيعكف عليه بضمه الفارغ كأنه يأكل ولا

شئ \* هناك، فليس أجن منها سواء ! وما أغرب منظرها وهي تداعبه  
وتناجية وتوهمه أنها تعض أنامله فيضحك ، ولم أر قبل هـ هذا حيواناً  
يضحك . لقد حيرني جداً هذا المخلوق العجيب الذى تسميه حواء (قابيل)  
والذى لا أدري ماذا هو ؟ فهو ليس منا إذ كان لا يمشى مثلنا ولا يتكلم،  
وليس من الطير فما له أجنحة ثم هو لا ينهض فكيف بالطيران ، وليس  
من الحيوان فإن جلده أملس لا شعر عليه وليس له ذيل ، وأكثر  
ما أراه مستلقياً على ظهره ورافعاً رجليه فى الهواء ، ولست أفهم لغته،  
ولكن حواء تزعم أنها تفهمها وتجيبه إلى ما يطلب فيكف عن الصياح  
ويضحك وينام ، أما أنا فقد تقطع نومى منذ جاءتنا بهذا اللغز ، سأعاقبها  
يوماً وأسرقه وألقيه فى الغابة أو فى الغدير فإنى فى شك منه عظيم .

بعد بضعة شهور - لا أزال عاجزاً عن فهم هذا اللغز الذى كنا فى  
غنى عنه والذى يشرد عنى النوم ، ولم استطع أن أسرقه لأن حواء لا تتركه  
لحظة وقد نما بسرعة فصار خمسة أضعاف ما كان عليه لما جاءنا ، وكان فى  
أول الأمر لا ينفك مستلقياً على ظهره فالآن يحبو على يديه ورجليه وقد  
يباغتنى وأنا نائم فيضع يده الصغيرة فى فمى أو يقبض على أنفى أو يجذبني  
من لحيتى ، ليست حواء وحدها المجنونة فسيالحق بها سواها قريباً ، ولقد  
أشفقت على هذا اللغز وقلت آتية برفيق يؤنسه فى وحدته ويسليه فى  
فى غربته بينما لجئت بدب صغير ولكنه لم يكدر يراه حتى ريع وملاً  
الدنيا صياحاً فلم أجدها من طرد الدب ورده إلى حيث كان .

أى شئ هو ؟ هذا ما يحيرنى !! هو قط ؟ لا ! أو دب ؟ لا ! أو قرد ؟  
ربما ، ولكن أين الذيل ؟ والشعر ؟ سنرى .

بعد شهور أخرى - لا يزال هذا اللغز ينمو وهو الآن يقف على قدميه الخلفيتين ويمشي خطوات ثم يقع ، وقد ظهر الشعر في رأسه وهو كشرنا نحن لولا أنه انعم واخف واقل سوادا وألين ملمساً ، وكنت أتوقع أن يظهر له ذيل ولكن خيب أملى . وأقول الحق لقد بدأت أخافه فان هذا النمو الشاذ الذى لا عهد لى به فى حيوان آخر يوقع فى روعى لئى لم أر آخر هذه الحكاية . وما يدرينا غدا ماذا يكون منه ؟ وقد رأيت أن الاحزم أن أنام خارج الكوخ من الآن فصاعداً ، وأن أدع حواء وحدها معه ، وليس هذا من الشهامة والمروءة فى شيء ، ولكن ماذا أصنع وهى لا تريد أن تفرط فيه ولا ترضى أن تعترض منه دبا أو قردا ؟ فعليها إذن أن تحتمل وحدها عواقب طيشها وحقاقتها .

بعد أربعة شهور - عدت من الجبل بعد غيبة طويلة فألفيت اللغز يمشى على قدميه مثلنا ويذهب حيث يشاء وحده وينطق بما يشبه كلامنا فيقول « بابا - ماما - أومبو ، فهل علمته حواء ؟ لا أدري ، وقد نبتت له أسنان ولم ينبت الذيل . ولما كنت سأعود إلى الجبل غدا فسأشير على حواء بأن تكلمه .

بعد خمسة شهور أخرى - فى كل تطوافى وتجوالى فى الجبال والغابات والأدغال والأودية والسهول لا اعثر على ند لهذا اللغز ، وحواء تجد فى الكوخ - نعم فى الكوخ ومن غير أن تنقل قدما - لغزا آخر شبيهاً بالاول من كل الوجوه فهو من فصيلته ولا ريب ، وقد سمته هايسل ، وحسناً فعلت فان اللغزين شبيهان فما أحقهما بأن يكون اسماهما متقاربين . وقد

سرنى أنها وجدت للغزها الأول مؤنساً ، فما أشك في أنه كان يألم هذه الوحدة ويحن إلى قومه .

اقترحت على حواء أن تدع لى اللغز الجديد أجرى فيه تجاربى لعل اهتدى إلى نوعه وأن تجتزى هى بالأول فأبت أن تصغى لى، ولم تطق كلامى واحتملتها وخرجت، وتوعدتنى بالنزوح عن هذه البقعة من الأرض إذا لم أكف عن التفكير فى ذلك . ولست أفهم ذلك من حواء وما أراها إلا جنت تماماً . لأنه إذا كان قد ثبت أن هناك ألبازا كثيرة، وكانت هى قد وجدت منها اثنين - وجدتهما وحدهما وبلا معين - فإذا يضيرها أن تلقى إلى بأحدهما وهى لا محالة واجدة غيره فى يوم من الأيام قياساً على ما حدث ؟ الحق أن منطق المرأة غريب . ولم أكن أريد إلا أن أخصه فى أوقات الفراغ فقد خطر لى من حسن تقليده لحواء ولى أيضاً أنه ربما كان نوعاً طريفاً من القروود . ولكن حواء فقدت عقلها فهى لا تعبأ بشيء من هذه الدنيا سواهما ولا تأتمنى عليهما لحظة .

بعد ثمانية شهور - قالت لى حواء اليوم وعينها تلمع أنها « ستضع ، واحداً آخر، ولم أفهم منها قولها أنها « تضع، هذه الألباز، وهذه الأكاذيب بعض ما يستخطى ويثيرنى عليها، ولكنى أحسب المرأة لا تكون امرأة إذا لم تكذب فسألتها عن أدراها أنها ستجد لغزاً جديداً فقالت بالتجربة، قلت : أية تجربة ؟ فضيت بى إلى ركن مظلم فى الكوخ واسرت إلى بصوت خفيض جدا - كأنما كان هناك أحد يسمعنا - أن اللغز معى الآن . فهضنت مذعورا وقلت معك كيف ؟ ودرت حولها انفضها بعينى فلم أجد معها شيئاً . فقالت : إنه فى جوفى . فارتعت وقلت . اتراك يا .. قدأ كلت



أحدهما ؟ وتراجعت عنها فضحكت .. أن حواء تخيفنى . فلن أنام فى الكوخ ،  
معه بعد اليوم .

بعد بضع سنين - لقد حللنا الغز وعرفنا أن هذه الخلائق الجديدة  
بنونا . وهم الآن أربعة قابيل وهايل وبتان . ولنا العذر إذا كان الأمر  
قد خفى علينا فى مبدئه ، فما سبق لنا بمثل ذلك عهد . وهايل صبي وديع  
رضى الخلق وهو أحب إلينا من أخيه قابيل الذى أوثر أن يبقى كما كان  
يوم جاءنا دبا أو قرداً أو غير ذلك مما توهمته فى صدر حدائته . وقد  
ادركت الآن أن حواء أصدق منى فراسة وأذكى غريزة وقد زاد حبي  
لها وعطفي عليها . هى التى تنسينى الجنة وماذا كانت الجنة قبل أن أعرفها

## عاطفة الأبوة

- ١ -

قلت مرة لزميل من المدرسين الانجليز ، رزق غلاما :  
- أنتحب غلامك هذا ؟

فأدهشه سؤالى ولم يخف تعجبه له ، وتوهم بادى الامر أنى أتكلف التشكك ، فلما بدا لى منه هذا الريب فى صدق سريرتى سألته :  
- أظن أن فقد الأبناء فى طفولتهم يكون كفقدهم بعد أن يرشدوا ، ويدخلوا فى مداخل الرجال من حيث وقع ذلك فى النفس ؟  
قال : كلا . وإن كنت والله الحمد لم أجرب هذا أو ذاك .

قلت : وكيف تعلل ذلك ؟

فأطرق لحظة ثم قال : لى أرد الفرق بين الوقعين إلى مبلغ الجهد والعناء فى تنشئة الطفل ورعايته حتى يكبر ، فعلى قدر ما نبذل فى تربيته يكون حرصنا عليه وضمنا به وشعورنا بالخسارة حين نفقده .

قلت : انكم معشر الانجليز هكذا دائماً ، حتى العواطف تقدرونها بالأرقام ، على أن تعليلك مع ذلك صحيح إلى مدى كبير ، وإن كنت لا أشك أنه كان يسعك أن تهتدى إلى عبارة أخرى غير هذه . والآن سؤال آخر - هبك رزقت غلاما ورحلت عن بيتك زمناً ثم عدت وقد

شب الطفل وترعرع وأصبح فتى يافعا ، أياكون شعورك نحوه كشعورك لو أنك كنت إلى جانبه ، تراه في كل ساعة وتراقب نموه وتفتح عقله ؟ قال : كلا .

قلت : أظن أن من الضروري لنمو الشعور بالأبوة أن يكون لجهودك الذي تبدله مظهر مادي ، كأن تتولى أنت مثلا الانفاق عليه والسهر على تعليمه ومراقبة تدريبه بنفسك إلى آخر ذلك مما يجري هذا المجرى ؟ قال : وكيف يكون الجهد غير ذلك ؟

قلت : ألا يكفي مثلا أن يكون جهد عاطفة ، يحركها ويثيرها قربه منك ؟ قال وما أشك في أن هذا يكفي .

قلت : نستطيع الآن أن نستخلص أن حياة الطفل هي التي تتيح للشعور الأبوي فرصة النمو ، وبعبارة أخرى أن للعادة دخلا لا يستهان به في قوة هذا الشعور. وليس معنى هذا أن العادة تخلق هذا الشعور خلقاً ولكن معناه ، أنه يكون كامناً في النفس فتظهره ، وضعيفاً فتقويه ، وفاتراً فتكسبه الحرارة . والأبوة ماذا هي ؟ أليست مظهراً من مظاهر حب الذات والرغبة في تخليدها بتكريرها وإعادتها في شخص آخر هو بعضها ؟ قال : أحسبها كذلك ..

قلت : ولكن التخليد معنى ، أو إن شئت فقل إنه وهم وخيال تتعلق به النفس وتتغذى عن الفناء الذي تعلم أنه لا محالة مدركها ، ولما كان كذلك فرب نفس تكون أطلب له - بطبيعة استعدادها - من نواح أخرى غير الأبوة ، وعلى طريقة غير طريقة التكرير والاعادة - إذا صح أن الأبناء صور معادة من الآباء ، وهو غير صحيح ، فما أظن بك ألا أنك

ترى معنى أن هذه الاعداء تكون إسرافاً لا معنى له، وسفها لا تسوغه  
حكمة ، وأخلاق بالجيل الواحد من الناس أن يغنى عن كل الأجيال التي  
تتلوه إذا كانت ستجىء مطابقة له غير مختلفة عنه ، وما أحق الطبيعة  
في هذه الحالة بأن يحجر عليها .

قال : هذا كله صحيح بل بديهي . . .

قلت : أشكرك !

قال : عفوا . إنما أردت أن أسأل عن النتيجة ؟

قلت : أريد أن أقول إن عاطفة الأبوة قد تكون في بعض النفوس  
أضعف منها في البعض الآخر .

قال وهو يلتسم : ما أراك جئت بجديد .

قلت : بل أريد أن أقول إن بعض الناس لا يصلحون أن يكونوا  
آباء أو بعبارة أخرى أنهم بطبيعة تكوينهم لا يستطيعون أن يخدموا  
( النوع ) من هذا الطريق ، وهؤلاء هم الذين نسميهم النوايغ ونعني بهم  
طلاب المجد الأدبي أو الحربي أو العلمي ، فكأن مساعيهم تستنفد حيوياتهم  
وتردهم غير صالحين لغيرها ، ومن هنا ما يلاحظ من عقمهم أو قلة  
نسلهم أو سرعة انقراضه على خلاف السواد الأعظم من الناس وهذا  
السواد هو الذي يعمر الدنيا ويحفظ النوع الإنساني فيها .

• • •

والناس أكثرهم لا يفكرون ، سألت مرة واحداً من أخواني .

لماذا تحب أبناءك ؟ فكان جوابه أنهم بعضه وفلذة من كبده  
ألم يقل الشاعر :

ولنما أبناؤنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض ؟  
إلى آخر هذا الهراء الذى يعذب فى السماع وتأنس إليه النفس وإن  
كان لا يحول وراهه ، وقد أردت أن أنبه صاحبي هذا إلى ما بتعليقه من  
الماخذ فقلت .

- وهل أنت آسف على أبنائك الذين أخطأهم التوفيق ولم يتمكنوا من  
الانحدار إلى هذه الدنيا ؟

قال فى وجوم - ماذا تعنى ؟ من هم ؟

قلت : إن الجواب الذى تطلبه يستوجب منى أن أصارحك بحقيقة  
علية لا أحسبك تجهلها ، فأنا أذكرك بأن الرجل منا ينفث فى المرة  
الواحدة مئات من الملايين من الجراثيم ، وكل جرثومة منها كافية لأن تخرج  
إلى الدنيا طفلاً لو ساعقتها الأحوال وآزرها الحظ ، ولكنه قلنا يكون  
هناك أكثر من جرثومة واحدة هى السعيدة الموقفة ، وما خلاها يذهب  
كما يراق الماء فى الصحراء . فالإنسان - إذا اعتبر هذه الحقيقة العلية - يفقد  
فى كل مرة ملايين من الأبناء بقدر ما يضيع سدى من ملايين الجراثيم ،  
ولولا هذا الاقتصاد فى التلقيح لاستطاع فرد واحد أن يعمر لا الكرة  
الأرضية وحدها ، بل مئات من الكرات الأرضية بنسله .

وهذه الجراثيم الضائعة ، أو إذا اعتبرت ما كان يمكن أن يكون ،  
هؤلاء الأبناء الذين لم ينجسوا ، بعضك أيضاً ، وهم أفلاك أو أكبادك

كما تقول أو يقول الشاعر ، فلماذا لانراك أو نرى أحداً يأسى على فقدهم  
وهم بعضك ، كما تفرح لسلام ترزقه ، وتحبه لأنه بعضك ؟  
الحقيقة أن المسألة ليست أن الأب لا يحب أبنائه إلا لأنهم بعضه ،  
فإن غريزة حفظ النوع قد تكفلت بنشوء العاطفة وبدفع الناس إلى  
طلب النسل ، وهى عاطفة يسهل على الرجل - كما لا يسهل على المرأة -  
أن يحولها إلى مجرى آخر تخرج منه شيئاً مختلفاً جداً ، وعاطفة جديدة وإن  
كانت مولدة من عاطفة الأبوة . وهى لم تتحول فإن من الميسور أن  
تنمو وأن تستوفى حظها على التبنى ، كما هو معروف ومألوف .  
على أن الرجل والمرأة ليسا سيين فى هذه العاطفة ، وأكثر الفرق  
بينهما راجع إلى أن غريزة حفظ الذات أقوى فى الرجل من غريزة  
حفظ النوع ، أما المرأة فعلى خلاف ذلك والغريزة النوعية فيها أقوى  
من الغريزة الفردية ، إذ كانت هى بطبيعة تكوينها ، أداة المحافظة على  
النوع ، وليس الرجل سوى عون لها على ذلك ، ومن هنا كانت الأمومة  
وحواشيها أقوى وأبرز من العواطف المنبعثة من الأبوة .



بعد هذا الذى أسلفناه لانظن القارىء يستغرب أن نقول أن عاطفة  
الاياء عادة ليس إلا ، والف لا أكثر ولا أقل ، وما احسبها تختلف  
فى حقيقتها عن عاطفة الصداقة ، وكل ما فى الامر أن اشتراك المصالح  
والنشأة الواحدة تجعل الربط أمتن والأواصر أوثق . وليس أسهل  
من فساده ولا أيسر من تفككه عراها إذا وقعت النبوة بين الأخوين  
لسبب من الاسباب ، فلامبالغة إذا قلنا أنها عاطفة لا تتميز إلا فى الظاهر

ولأما من حيث الاعتقاد العام فيها ، عن أية عاطفة تنشأ بين اثنين من أبناء آدم . وليس بالنادر ولا من الفلتات أن تؤدي أعاجيب ما تحدثه الوراثة إلى جعل الأخوين أشد ما يكون اثنان تنافراً ، وقلها يفقد الوالدان حب ابنهما أو الولد حب أبويه ، ولكن ما أكثر ما يقع من التعادى بين الأخوين ويتباغضان ، ذلك أن الأبوة أو الأمومة أصلاً تحور إليه ويبقى لها إذا فقدت كل معزز أو مقو ، ولكن ما بين الأخوين لا يرجع إلى أكثر من المصادقة .

والناس يدركون هذا ويفطنون إليه بالسليقة وإن كانوا قل أن يفكروا فيه ، فإهم يطلقون لفظ الاخاء والتآخى على الصداقة ولا يستكثرون أن ينزلوا الصديق منزلة الأخ ، ولا يحسون انهم هبطوا بمرتبة الاخاء من أجل ذلك ، ولكن الأبوة عندهم وعلى ألسنتهم فى كل لغة لها مقامها الذى تنفرد به ومنزلتها الملحوظة التى لاتدانيها منزلة . وليس أصدق من فطرة الجماعات ولا أصح أو أدق من تقديرها لهذه الصلات بما تجريه على ألسنتها - عفواً ومن غير تدبر - من العبارات الواسعة الدلالة العميقة المغزى .

## — ٢ —

قَالَ لى صاحب قديم خلطته بنفسى زمناً :

« أصبح هذا ؟ »

قلت « ماذا ؟ »

قال « هذا الذى كتبته عن عاطفة الأبوة »

قلت « وما سؤالك أنت الإنكار هو أم أسلوب جديد في الإعراب  
عن الموافقة ؟ »

قال « أما ما ذكرت عن عاطفة الإخاء وإنما لا تختلف عن الصداقة  
في أصولها ، وإن الناس يفتنون إلى ذلك بالسليقة فينتعنون الصديق  
بالأخ ، فصحيح ، وكذلك ما أشرت إليه من أعاجيب الوراثة قد تقضى  
إلى التنافر بين الأخوين ، »

قلت « إن التعادى قد يقع بين الأخوة حتى من غير أن يكون  
للوراثة دخل ، وما أكثر الأسباب التي تؤدي إلى انفراج الحال ووقوع  
النبوة ، كأن يكونوا من أم واحدة أو أب واحد - أى غير أشقاء -  
أو يكون أحدهم أكثر توفيقاً في الحياة ، أو أثر عند أبويه وأحب إليهما .  
وأحسبك تذكر قصة يوسف - عليه السلام - وحسد أخوته له لأنه  
أحب إلى أبيهم منهم : »

« لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين إذا قالوا ليوسف وأخوه  
أحب إلى أبيينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف  
أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً  
صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب يلتقطه  
بعض السيارة إن كنتم فاعلين ، »

وهذه الآية الكريمة تريك كيف يتحدث الأخوة بقتل أخيم  
ويأتمرون به ويتفقون على إلقائه في الجب وتركه لمن عسى أن يلتقطه  
من المارة ، ويذهب به إلى حيث يشاء من الأرض ، ويبيعه أو يتخذه



عبداً له أو يصنع به ما يجب ، كأنما لايجرى في عروقه نفس الدم الذى  
يجرى في عروقهم، وكأنما لا تربطهم به صلة ولا تعطفهم عليه آصرة ، وكل  
هذا لماذا؟ لأن أباهم فيا يرون أحنى عليه منه عليهم وأكثر شغفاً به ورقة له!

وأدل من ذلك وأولى بالملاحظة أن أباهم نفسه يدرك بفطرته  
السليمة ويألهام حبه ليوسف ، إن كون يوسف أخاً لهؤلاء ليس يمانعهم  
أن يسيثوا إليه ويكيدوا له غيرة وحسداً ، تأمل هذه الآية :

ه إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس  
والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك  
فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين ،

والتاريخ حافل بقصص الأمراء الذين لم يتخرجوا أن يقتلوا اخواتهم  
ليتبوأوا عروشهم أو ليحلوا محلهم في ولاية العهد أو ليتقوا تأمرهم عليهم ،  
لا بل ليستولوا على زوجاتهم، وقل أن يقتل الولد أباه ، وأقل من ذلك  
وأندر أن يقتال الوالد ولده ، وعلى أى شىء تدور قصة هملت الخالدة ؟  
أليس محورها كله أن عمه اغتال أباه وأفرغ السم في أذنه وهو نائم في الحديقة ،  
ليخلفه على الدولة ، ثم لم يرعه شىء أن يتزوج من كانت امرأة أخيه؟ والناس  
لا يستفزعون أن يتخذ المرء زوجة أخيه زوجة له بعد أن يسرحها أو يموت  
عنها ، ولكن ما أشد استفظاعهم لأن يبني المرء بمن كانت زوجة لابنه! وأفظع  
من ذلك أن يتزوج امرأة أبيه ، لأنها في منزلة الأم ، حتى لقد حرمت  
الشرائع ذلك ، على حين كان المصريون يتزوجون الأخت

ولست أذكر هذا إلا على أنه مظهر للشعور الفطرى العام الذى

تقوم على قاعدته الشرائع والقوانين ، وتدور عليه الآداب الصادقة  
لا التقليدية المتكلفة .

قال صاحبي - هذا صحيح ، ولكن ألا ترجع عاطفة الأبوة إلى أكثر  
من العادة والآلف ؟

قلت - من قال إنها عادة ليس إلا ؟

إن الشعور الأبوي مرجعه إلى غريزة حفظ النوع كالحب ، وأساسه  
في الرجل والمرأة واحد ، غير أن الرجل أقوى تمثيلاً في حياته الفردية  
منه للنوعية ، أعني بذلك أن غريزة حفظ الذات أقوى فيه من غريزة  
حفظ النوع ، ذلك أنه هو الذي يتولى مكافحة الطبيعة بما فيها من قوى  
وكائنات من جنسه وغير جنسه ، وهو المتكفل بالسعى والذي يتعرض  
بسبب هذا كله للأخطار ، فلا غنى له عن الاحتياط لدفعها بالقوة  
إذا تهيأ له ذلك ، وبالحيلة والتدبير وحسن التصرف وما إلى ذلك  
إذا أعوزته المنة ، والحياة ليست باللحمة السائغة فهو محتاج إلى مغالبة  
الصعاب ومعالجة تدليلها ، وهو في كل خطوة يخطوها يصادف ما ينبه  
غريزة حفظ الذات أو صيانة النفس ، ومن أجل هذا - كما قلت في -  
حصاد الهشيم - صارت هذه الغريزة أقوى وأنضج وأسرع تنبهاً وأكثر  
عملاً ، لأن حياته تجعل أعماله متصلة بها أكثر من اتصالها بغريزة حفظ  
النوع . وهو لذلك أحس بها وأسرع تأثراً من ناحيتها ، ومن هنا كانت  
الانانية في الرجل أظهر وأقوى . والعامة يلاحظون ذلك ويفطنون  
إليه ويذهبون فيما وضعوه من أمثالهم إلى أن الأم أحنى على طفلها من  
أبيه . وقد ترى الرجل يداعب طفله برهة أو ساعة ، ولكنك قل أن تجد

رجلا يقوى على ما تقوى عليه المرأة من ملازمة الطفل ، والمشاورة على مداعبته والصبر على التحدث إليه، ومن توهم فهم ما لعله يرتسم على صفحة وجهه من الحركات أو يند عنه من الأصوات ، واحتمال ذلك وما هو أشق منه ساعة بعد أخرى ، ويوماً بعد يوم ، وشهراً تلو شهر ، وحولاً عقب حول .

أما المرأة فخلقت للنوع قبل أن تخلق لنفسها، وهى فى سبيل النوع تحمل وتضع وتعرض للبوت الوحى ساعة يجيئها المخاض . وتكوين جسمها شاهد بأنها مجعولة أداة للنسل ووسيلة لحفظ النوع ، فى خوفها مكان معد للجنين تحمله فيه تسعة أشهر كوامل ، ولها ثديان يدران اللبن ، وجسمها مركب بحيث يتحول الغذاء إلى لبن ترضعه طفلها وتغذيه به حولاً كاملاً على الأقل .

فالعاطفة موجودة ، ومردّها عند الرجل والمرأة إلى هذه الغريزة النوعية ، ولكن اختلاف الرجل والمرأة من حيث التكوين وما أعدتهما الطبيعة له ، ومن حيث طبيعة الحياة يجعل هذه العاطفة أقوى فى المرأة . وأنفج منها فى الرجل ، ثم تجيئ الصور الذهنية التى تحصل لكل منهما فتزيد هذه العاطفة وتضرمها . وهذه الصور عند المرأة حشد حاشد وبحر زاهر لا آخر له ولا نهاية ، فهى لا يسعها إلا أن تذكر ما عانت فى شهور الحمل وما جربت فى أطواره وأحست من حركات الجنين فى جوفها ، ثم ما كابدت من عذاب الوضع ، وكم الف الف صورة تحصل فى ذهنها بعد ذلك ، مذكّان طفلها وليدأ إلى أن يشب عن الطوق ويدخل مداخل الرجال أو النساء ، وكل حركة ومصة من ثديها وابتسامة ونظرة

وتعليقة وعولة وصوت ونهضة وعثرة - خطوة - كل ذلك منقوش على  
صفحة قلبها مرتسم على لوح صدرها مذكور في رأسها ، وجوها حافل  
بهذا الطفل ، وحياتها كلها دائرة عليه غير منفصلة عنه ، وماضيها كان  
تمهيدا له، وحاضرها مستغرق فيه، ومستقبلها آمال منوطة به ، وأخلق بهذا  
أن يعيننا على تصور روعة الامومة وعمقها وسعتها وانطواء كل احساس  
فيها ، وتسرب كل شعور اليها ومنها . ولما كان نصيب الرجل من هذه  
الصور التي تحصل في نفس المرأة أقل واضأل، فلا عجب أن يكون غذاء  
العاطفة الأبوية أنفه جداً مما يغذى عاطفة الامومة . وهل الحياة إلا الصور  
التي تحصل في الذهن ؟

يقول ابن الرومي في رثاء ابنه :

توخى حمام الموت اوسط صبيتي  
فلله كيف اختار واسطة العقد  
على حين شمت الخير من لمحاته  
وآنست من أفعاله آية الرشد  
طواه الردى عنى فأضحى مزاره  
بعيداً على قرب ، قريباً على بعد  
لقد انجزت فيه المنايا وعيدها  
وأخلفت الآمال ما كان من وعد  
لقد قل بين المهد واللحد لبثه  
فلم ينس عهد المهد أو ضم في اللحد

ألم عليه النّزف حتّى أحاله  
إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد  
وظل على الأيدى تساقط نفسه  
ويذوى كما يذوى القضيّب من الرند  
إلى أن يقول :

وإنى ، وإن متعت بابنى بعده ،  
لذاكره ماخنت النيب فى نجد  
وأولادنا مثل الجوارح أيها  
فقدناه كان الفاجع ألبين فقد  
لكل مكان لايسد اختلاله  
مكان أخيه من جذوع ولاجلد  
هل العين بعد السمع تكفى مكانه  
أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى  
أريحانة العينين والأنف والحشى  
الآليت شعرى هل تغيرت من عهدى ؟  
أننى ما استمتعت . منك بضمة  
ولاشئمة فى ملعب لك أو مهد  
محمد ما شئ توهّم سلوة  
لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد

أرى أخريك الباقيين كلها  
يكونان للاحزان أورى من الزند.  
إذا لعبا فى ملعب لك لنعا  
فؤادى بمثل النار من غير ما قصد  
فما فيها لى سلوة بل حرازة  
يهيجانها دونى واشقى بها وحدى

ولم نورد القصيدة كلها وإن كانت آياتها جميعاً من هذا الطبق الرفيع،  
وانما اقتصرنا على ما فيه تمثيل لما نريد، والذي نريد هو أن «نمى» عاطفته  
الابوة أو الامومة رهن بالصور الحاصلة فى الذهن ويجهد النفس وبالأمل  
الناشئ. وفى هذه الآيات المتخيرة صور عدة - صور قبلات، يذكر الآب  
حلاوتها، وشمت لا تزال تتضوع إلى أنه، وضمت لا يفتأ يحسها،  
وملاعب للطفل وعين أبيه ترعاه وتلاحظه، وذكر شتى يهيجها الغلامان  
الذنان أخطأهم الموت، بل كل شئ يهيج الشاعر إلى التذكر، وللهدصورة  
وللجد أخرى، ولما كان للآمال فيه صور شتى ولما صار إليه فى التراب صور  
غيرها، يتخيلها الشاعر ويتسامل عنها مشفقاً موجعاً فيقول (ألا ليت  
شعرى هل تغيرت عن عهدى)، ولصحته صور محبة ولسقاه وذبوله  
وما أصابه من النزف وذواه على الأيدى، صور تكوى الفؤاد وتلعج  
القلب، وللحاته وبشائرها وأفعاله وما كان يأنس منها والرجاء فيه والفرح  
به وانتظار ما سيكون عليه ويصير إليه، لكل ذلك صورته العالقة بالنفس  
المتشبثة بالضمير، وهكذا إلى غير نهاية. وأين تكون نهاية هذا العالم  
الحافل بالذكريات المحشودة الزمر؟ وما ظنك بالأم وعالمها أحفل، وزمر  
ذكرياتها أحشد!

والذين تتحول هذه العاطفة الأبوية في نفوسهم إلى مجرى آخر ، أعنى  
الذين يتبنون الآداب أو الفنون أو العلوم أو ماشا كل ذلك ، يستغرقهم  
حب ما انصرفوا اليه وتخلوا له ، ويدري الناس مبلغ استغراق ذل في نفوسهم  
واستيلاته على هواهم فيعجبون ويعدونه شذوذا ويحصونه عليهم ، ولو  
أنهم فكروا في أنهم اعتاضوا من الأبناء هذا الذي شغفوا به ، وأنها هي  
عاطفة الأبوة في صورة أخرى ومظهر جديد ، لما بدا لهم في أمرهم وجه  
غريبة أو شذوذ ، ومن الذي يستغرب من الأب حب بنيه ووقف حياته  
عليهم وإفراغ جهده في سبيلهم وقصر سعيه على خدماتهم ؟ لأحد ! بل  
هذا هو المعقول ، فم يدهشون ويعجبون حين تلبس هذه العاطفة ثوباً  
آخر أو تتدفق في مجرى جديد أو تتخذ صورة غير المألوفة ؟

## كيف كنت عفر يتامن الجن

•

كان ذلك وأنا قتي يافع أسوم كل سرح، وأنهر بكل دلو، ولا أفكر في غير الساعة التي أكون فيها، ولا أبني إلا أن أستوفي حظي في الحياة، وإن أستوثق من أن كرعتي منها راوية . وفي ليلة من ليالي الصيف الحديدة، ثنيت الخطأ إلى البيت — وكان في حقي « الصليبه » — بعد أن قضيت وطري من شراب وسماع، فلما بلغتته ووقفت على عتبتها، ذكرت ان ليس به أحد سوى جدتي التي أوفت على التسعين، وأن المفتاح ليس معي، فقلت لنفسي « أيليق أن أزعج الجدة وهي تقوم بجهد ولا تسير إلا إلى جانب الحيطان لتضع يدها عليها وتسند نفسها ؟ كلا، أولى بي أن أدعها مستريحة وأن الحق ببقية الأسرة — أي وأخي — والجو رائق والمشى منعش . »

هو أوليت الباب ظهري وانصرفت . ولم يكن الطريق إلى الأمام، في تلك الأيام، معبداً، ولا ترام هنا ولا نور، فليس طريق بأحسن أو أثر من طريق، فاخترت أقصر مسلك وهو الذي يمر بمسجد « السيدة نفيسة » ويخترق المقابر المبعثرة وراءه، ويتصل بالطريق العام المطروق عند آخره. ومضيت أخط في، واتخبط أيضاً لأن كثرة المقابر وانتثارها وتزاحمها تصل ولا سيما في الظلام، غير أنني لم أكرث لذلك ولا فكرت فيه،



وفوضت الأمر لرجلي تدبان حيث الفتا أن تدبا في أوقات شتى من النهار والليل ، وانطلقت أفكر فيما كنت فيه ، وأردد فيما راقني سماعه وأرجع ما شجاني من الانغام ، واعيتني « مقطوعة » وأحسست أن المشى لا يعينني على ضبط الصوت فيها وإخراجها كما ينبغي، فوقفت وأسندت ظهري إلى قبر وذهبت أغنى ، وهى صورة لا تزال ماثلة بذهني إلى هذه الساعة وإن كنت في ليلتي تلك لم التفت إليها ، ولا جعلت بالي لها ، وكيف يعبا شاب ثمل بالقبور وما انطبقت عليه ؟؟ وعلى أنه متى كان المرم في صدر العمر يفكر في الموت على أنه حقيقة قريبة لا مهرب منها ولا معدي عن مواجهتها ؟؟ إن الإنسان منا ينظر في شبابه إلى الموت — حين يجريه شيء بباله — كما ينظر إلى شيء وراء الجبل — لا يفهمه ولا يدركه ولا يعرف كنهه ولا يتصوره إلا على أنه المجهول البعيد . ويشغله صعود الجبل وما يلقاه على هذا الجانب منه، وما يفتنه وهو يتوغل حتى يدنو من القمة، فتزاحم في رأسه الخواطر والتكهنات عما وراء هذه الرابوة التي قضى الشطر الجميل من حياته في الصعود إليها، ويحضر إلى ذهنه شيئاً فشيئاً معنى الموت ومؤداه ثم يستبد بخاطره ولا يخاطره ويكون الأصعاد قد هد القوى كثيراً وأنهك الجسم فيتبدل إلى حد كبير من فرط التعب ويواجه فكرة الموت في شيء من الذهول يذهب برهبة الفناء ويسلبه الفرع .

وقفت اذن أغنى على القبر وأرسل الصوت في ظلمة الليل غير حافل بما حول من القبور المتزاحمة أو عابيه بما تحتي من الرفات الدفين . رفات قوم كانوا مثلي في ميعة العمر وعنفوان الحياة وجهل الشباب يمرحون ويغنون ولا يفكرون فيما يصير إليه كل حي من الفناء الشامل . وما

فتنت إلى هذه الساعة أعجب لذهولي إذ ذاك عن الموت وأنا في وسط  
لجته الراكدة . ان الشباب رحمة، وكيف كانت الحياة تكون لو ان فكرة  
الموت كانت تخامر النفس من المهد إلى اللحد ؟ كان حرياً بها إذن  
الا تطاق وكان خليقاً بالمرء أن يكف عن كل سعى، وأن ينفذ يده من  
كل جهد يبذله في سبيل أية غاية بالغة ما بلغت من السمو والفتنة ، وما  
خير الحياة أو جدوى المساعي أو عزاء الغايات وهذه الهاوية مفتوحة  
لابتلاع الإنسان ؟ ان الموت هو اليأس ، ومن رحمة الله بالخلق أن  
الحياة أقوى ، وأن إحساس المرء بها أعظم، وأن وقعها في نفسه أشد، وأن  
استيلاءها عليه أتم ، والشباب قوة دافقة ، والحياة معه تكون جديدة ،  
فلها كل حلاوة الجدة وسحرها ، ولكنها في الكهولة تكون شيئاً مألوفاً  
وتجارب معهودة معادة ، ومن هنا لا يحس الإنسان بالفرع حين يخطر  
له أنه سيكف عن هذه الحياة التي ظل يذوقها حتى كاد يحتوئها ، ولولا  
أن الحياة عادة ككل شيء في الدنيا ، وأن المرء يألف أن يعيش وأن  
يتنفس الهواء لما استثقل أن يموت وأن ينقطع عن الدنيا ، فالعادة  
والخيال الذي ينمو مع العمر ، والاحساس بالنفس ، هذا هو الذي  
يجعل الموت صعباً ويجعل لفارقة الحياة المأساوية . وعلى خلاف ذلك ،  
الأطفال والحيوان .

وبينا أنا واقف أغنى لمحت شبحاً مقبلاً ولم أشك في أنه رجل  
فاتجرؤ المرأة — إلا في الندرة القليلة — أن تسير بين القبور في الليل  
فكففت عن الغناء وساورتني الشكوك . وخطر لي أن القادم قد يكون  
لصاً ، وقد لا يكون ذلك، ولكن وحشة المكان وسكون الليل قد يغريانه

بالتلصص . غير أنى طمأنت نفسى ، وقلت - وماذا أخشى وليس معى شئ يستحق السرقة ؟ إن هى إلا بضعة قروش لا تغنيه إذا فاز بها ، ولا تفقرنى إذا خسرتها ، وأنا بعد خفيف الوزن سريع العدو وعارف بالمداخل والمخارج ، وما أحسبه يستطيع أن يدركنى إذا أطلقت ساقى للريح ، فلا خوف من القادم ، وليكن من يشاء ، وليس من الحكمة أن أدع الخوف يشيع فى نفسى فتظهر دلائله فى صوتى وحركاتى ، فيطمعه ذلك فى ، إن كان رجل سوء ، على أن الحزامة مع ذلك أن أتوارى خلف قبر منزو ، لاراه دون أن يرانى ، ولاعرف ما ذا هو ، ولايسير أمامى وأكون أنا وراه فذلك أدعى إلى الاطمئنان .

ودنا القادم فإذا هو شيخ كهل ، أبيض اللحية وفى يده سبحة ، وهو يذكر الله أو يتلو من القرآن أو لا أدرى ماذا كان يتمم ، وبأى كلام كان يحرك شفتيه ، فعاظنى أن هذا الشيخ الضعيف قد أفرغنى ، وكأنما تحركت نفسى للانتقام منه ، فعاقلته فى بعض الطريق وظهرت له فجأة من وراء قبر فريع المسكين وكاد يتهاقت إلى الأرض ، وأسرعت فتواريت وعدت أدراجى مسافة قبر أو قبرين - أى بضعة أمتار - وكان الرجل يتلفت حوله فلا يبصر شيئاً ولا يسمع حساً فشدد بعضه إلى بعض وتقل بمنة ويسرة ورفع صوته بالاستعاذة من كل شيطان رجيم ، واستأنف التلاوة والسير ، وأنا أتسلل بين القبور وراه ، وصارت خطاه أسرع ، فأدركت ان الخوف لا يزال فى قلبه ، ووثبت إلى جانبه مرة أخرى ، ومددت يدى بخفة فجذبت شعر لحيته فصرخ واختفيت ، ودرت من وراء القبور فسبقته وأنا أكاد اجد من السرور والجدل ، وصدرى يكاد ينفجر

بالضحك المكتوم، وصبرت حتى مر بي فدفعت يدي إلى خصره ودغدعته فأقسم لقد وثب الرجل عن الأرض كأنما كنت قد غرزت في جنبه سيفاً أو حديداً محمياً ورأيت فرصتي سانحة — فقد يلغ الاضطراب بالرجل غايته ، وصار يخلط في كلامه كالذي لا يعي ما يقول ، فكان يصيح « أعوذ بالله من . . . » من فرط ما أصابه من الفرع . وجثته من ورائه ورفعت صوتي بالزمزمة وبكل ما استطيع إخراجه من الأصوات المنسكرة فانطلق الرجل يعدو . ١٠ ؟

وهكذا أفلت مني . . ! وكنت قد تعبت فلم أحاول أن الحق به، فثبيت متمهلاً ونفضت التراب عن ثيابي وخرجت إلى الطريق العام المطروق وبعد قليل — ريع ساعة أو نحو ذلك — بلغت مسجد الإمام الشافعي وكان المؤذن يمهّد للأذان بغناء سخيّف، والناس يخرجون إلى المسجد ليتشيروا لصلاة الفجر، فرأيت جماعة يحيطون بصاحبي الشيخ وهو يقول لهم: —

« وكان كالقط الأسود ، شب على كتفي ويلحس لي خدي وينفذ من بين رجلي ، ويدخل بين الجبة والقفطان ، وكنت أستعبد بالله فتنشق الأرض ويغيب في جوفها ، ولكنه كان يعود فيظهر لي أحياناً في صورة الدبة راكضاً على يديه ورجليه ، وأحياناً أخرى في مثل كفن الميت خارجاً من تحت أحجار القبر ، وقد تمزق اللثام عن وجهه وبرزت عيناه تقدحان بالشرر فأتلو ما تيسر من القرآن فيلتف الوجه في خرقه ويهوى الجسم إلى جده . ولست أنسى ما حييت أسنانه ! لقد كانت كالجرات لامة حمراء وكانت تضطرب في فمه وتخفق كالنجوم والحمد لله الذي أنجاني من عناقه . . . »

فقال أحدهم : « أراه هم أن يعانقك ؟ »

فقال الشيخ : « هم ؟ هم يعنى ماذا ؟ أقول لك أنه مد ذراعين كأنهما مئذنتين ودنا منى ليطوقنى بهما ولمسح الشوك الذى فى صدره كأسنان الخراب فلولا أن ألهمنى الله أن أقرأ آية الكرسي لكنت أنا الذى مت . »

قال آخر ، وهل مات ؟ غريب !

فقال الشيخ : « لقد احترق . حرقته آية الكرسي . ثم استأنفت السير حتى بلغت هذا الطريق عند ... »

ودار بوجهه ليشير إلى المكان الذى نفذ منه إلى الطريق العام فأبصرنى وراءه فاضطرب وصاح وهو يشير إلى يديه : -  
« أهه . أهه .. أهو ... »

فلم يفهم أحد سواى معنى صيحته وأشارته ، ورددت الضحك الذى ازدحم فى حلقى والتفت ورأى ، كأنما أريد أن أنظر إلى حيث يشير ، وكان الرجل يتراجع ويلصق بالناس فسأله بعضهم : -  
« أين ؟ إنا لانرى شيئاً ! »

فسح الشيخ وجهه بكفه وفاء إلى الهدوء وقال : -

« غريب ! غريب ! أن هذا الالفدى يشبه جداً ، »

فلم أر مانعاً من الضحك وقلت : -

« أترى لى وجه عفريت ؟ »

وكان بين الواقفين رجل أعرفه ذكياً خبيثاً ويظهر أن الشك خالجه في  
الحساية أو أنه فطن إلى بعض الحقيقة فقال لي :-

... « إسمع . من أين جئت ؟ »

قلت « وقد أدركت ما يرمى اليه — جئت من هذا الطريق ،

وكان هذا كذباً أو بعض الحقيقة . ولكنني خفت أن يجر الصدق إلى  
الفضيحة : فعاد يسأل ،

« هل جئت من السيدة نفيسة أو من القلعة ،

قلت : « من القلعة ولا شك ، ومن الذي يجرؤ أن يمشى بين القبور؟ ،

فتمتم شيئاً لم أسمعه ومضى عني ونجوت

وهكذا عرفت أني كنت في ليلتي عفرتنا من الجن !

## رجل ساذج

كان لنا - ونحن شبان - رجل ساذج لم يعرف سوانا . كأنما قد هبط علينا من السماء . وكان الواحد منا يذكر معارفه أو يصف القرية التي هو منها ، أو يقص علينا مغامراته ، أو يحدثنا بمعاشقه ، ويعرض ما عسى أن يكون محتفظاً به من مثل خصلة شعر أو منديل أو نحو ذلك ، وهو واجم كتيب لا يفتح فيه . وكان يخشى ركوب الماء ويخرج من اضطراب الزورق على متنه ، ولا يزال يتنقل من جانب كلأ مال ، ولقد اضطربنا مرة أن نشده إلى سارية الزورق للتسريح من قلقه .

وأشدته مرة قصيدة ابن الرومي التي يصف فيها ما لقي في البر والبحر من التباريح والمخاوف . فلما بلغت قوله :

ولم لا ولو القيت فيه وصخرة

لوأفيت منه القعر أول راسب ؟

ولم أعلم قط من ذى سباحة

سوى الغوص ، والمضغوف غير مغالب

وأيسر اشفأقى من الماء أنقى

أمر به فى الكوز مر المجانب

وأخشى الردى منه على كل شارب

فكيف بأمنيه على مر راكب ؟

صفق وتحمس وقال إن هذا رجل عاقل ، وبعد أيام اتحنى بي ناحية وسألني أتعرف ابن الرومي ؟ فلم أعجب لسؤاله وقلت « نعم » قال : « أرجو منك أن تعرفني به ، فوعده أن أفعل . وشاورت أخواني كيف أصنع ؟ ولما اتفقنا، قدمته إلى شيخ وقور كثر اللحية إلا أنه احق سريع الغضب، وفي وسع القارىء أن يتصور ما وقع . وبحسبي أن أقول إن صاحبنا خرج من مجلسه وقد أصابته عكازة الشيخ على رأسه وركبته ، وكنت أصابة الركبة أوجع فظل يظلم أياما . وسألته بعدها عن ابن الرومي كيف وجدته ؟ فكاد الدمع يطر من عينه وقال في سداجة محبة إلا أنها مغرية « الحق على . أن التهم على كبار الناس سوء أدب . . »

ولست أنسى ما حييت حادثة أردنا أن نركبه بالدعابة فيها فأفضت إلى مأساة أو ما هو في حكمها . ذلك أننا أوهمناه أن فتاة رومية تعمل في « بار » شهير تحبه ؛ وألحنا عليه بذلك حتى صدق ، وكنا نجيشه بقليل من الفستق أو الشكولاتة ونزعم ذلك هدية منها إليه ، وكان هو حيا ينجل حتى من مخاطبة الاغراب من الرجال فكيف النساء ؟ فجعل يغشى هذا ( البار ) في الساعة التي يكون على الفتاة أن تجلس فيها إلى ( الكيس ) ويجلس بحيث يراها ولكن على بعد ، فندعه أحيانا ، وأحيانا أخرى نلحق به ونثنى على جمالها وتنافس في وصف مفاتها ، فيشرق وجهه وتومض عيناه ، كأنما يحمد منا الثناء على حسن اختياره ونروح نسأله « ألا ترى كيف تغمز بعينها ؟ أليس من الواجب أن تبادلها غمزة عين بغمزة عين ؟ فيفعل المسكين ونجاهد نحن أن نخترع سببا لما تنفجر به من الضحك . ومازلنا نحثه على استعمال اشارات الحب حتى صار يدخل البار ومعه



طاقة شتى من الورود ما بين حرام ، رمز الحب المتقد ، وبيضاء عنوان الطهر والعفاف ، وصفراء للدلالة على ما اصابه إليه السهر والبكاء والبهمة من ذبول لونه، فيجلس ويشرع يخاطبها بهذه اللغة الدقيقة، حتى إذا فرغ من هذا المعجم استعمل المناويل يضعها على فمه، أو يكفكف بها الدمع الموهوم أو يفركها بين أصابعه . ولم يعد يبالينا أو يحفل غيرنا من الناس فقد اضطربت نفسه ولمعه حب هذه الفتاة .

والحق أقول أننا أسفنا لما تبينا ما صار إليه الأمر، ولكننا لم نستطع أن نثنيه عن هديان قلبه ، وكان كما قلت ساذجا جداً حياً إلى درجة تفسد الحياة وتحيل الانتفاع بها من المستحيلات ، ولكن الحب خلق شخصاً جديداً واسعفت السذاجة الحب واعاته على الاستبداد بنفسه ، وما راعى يوماً إلا هذا المسكين يعود إلى ويقول « هنتى » .

قلت وقد طاف برأسى أن المستحيل قد وقع « بأى شيء ؟ » .

قال « لقد خطبتها ! » .

قلت ولم أستطع أن أخفى دهشتى « خطبتها ؟ أنت ؟ » .

قال « نعم ، الست أحبها » .

فلم أدر أؤهنته أم أرتى له ، وخرجت من هذه الحيرة باجتناب الإثنين جميعاً وسألته « ومتى الزواج إن شاء الله ؟ » .

فطال وجهه فجأة وحاول أن يتسم ، ولكنه لم يوفق إلا إلى جعل وجهه مفزعا وقال : لن أتزوجها . وكأنما أحس أن الأمر يحتاج إلى إيضاح ، فزاد على ذلك « أعنى إنى أظن خير لى ولها إلا أتزوجها » .

فلم أرني زدت بإيضاحه إلا حيرة فصحت به بلهجة قاسية :  
« إنك مغفل » .

فأدهشني أن تنبسط اسارير وجهه وأن يقول « نعم أنا مغفل ولم أكن قط أجهل ذلك . وأنت تعلم إنني أحبها وقد خاطبتها في الزواج . فكانت كريمة جداً مؤدبة جداً . لم ترفض ولكنها لم تقبل أيضاً . والحق أقول يا صاحبي . لم يسعني إلا أن أصارحها بأنني .. بأنني كما تعلم مغفل ، وأنها تكون أسعد لو تزوجت رجلاً .. رجلاً .. غير مغفل .. يجب - مادمت أحبها - أن أقدم خيرها على رغبتى . أليس كذلك؟ إن من حقها على وواجبي نحوها أن أراعى مصلحتها .. قل لي أليس هذا خيراً ؟ »

فلم أقل شيئاً ومضيت عنه لا ساخطاً ولا ناظراً ، ولكن فائض النفس جائش الصدر وماذا عسى أن أقول لهذا المسكين الطيب القاب ؟ ؟ .  
ولم نضحك بعدها منه أبداً .

## ابن البلد



البلد القاهرة أو مصر - كما كانت ، وكما لا تزال تسمى هذه العاصمة - أو طائفة من الاحياء هي الواقعة بين العباسية والسيدة زينب ، وابنها شخصية شاع فيها الفناء علوا وسفلا وغفت عليها المدنية فلا يكاد المرء يلتقي بها في هذا العصر ، وما أسرع ما تداعت الاسوار وطغى عباب الحياة اقبل عشرين سنة فقط كنت ترى ابن البلد هذا « مستفيضا ، وتلقاه في حيفا تكون ولا تخطئه عينك وهي تدور بلحظها ، فهو رجل دنياه مصر أو تلك الاحياء القديمة منها ، لا يعرف غيرها ولا يكاد يدري أن فوق ظهر الأرض سواها ، وهبه يدري فأقل ما يعبا بذلك أو يحفله والزمن عنده اللحظة التي يكون فيها ، وهو ذكي إلا أنه جاهل ، وظريف سوى أنه مغرور ، وحى ولكنه لا يحيا إلا بحواسه ، تدور الدنيا حوله على محورها أو على قرن الثور الذي يحملها ويدور رأسه معها ولكنه لا يعرف ولا يرى شيئا ولا يسأل عن شيء ولا يكثرث لشيء ، ويحتقر الريف لأنه يجهله ، ويزدري المدنية لأنه لم يألفها ، ويعتز بنفسه ويستضخم أمرها لأنه سهر الليالي وأحياها بالغناء والشراب والعريضة وهو مثال الرضا عن النفس والجود الذي يخلفه هذا الرضا وإذا كان يرى كل شيء من قريب فما من شيء يدعو به إلى العجب أو يبتعث الرغبة في الاستطلاع

وكل إحساس له يصل اليه عن طريق الفكاهة ، وأشد ما يبغض أن يضطر إلى الجدل والوقار ، وليس في نفسه محل للاعتراف بالجميل ، والامر عنده بمعاملة متبادلة أو حق ، له أن يجيبه عليك أن تؤديه ، هو المثل الاعلى لنفسه - أو لعله جار سابع أو ثامن - فليس لغير نفسه احترام ولا مطمح له إلا أن يظل قادرا على التحفظ بمظهره ، فلا عناية له بالسياسة أو شئون الحكم ، وبحسبه من العلم بالحكومة ومهماتا أن يرى مواكب رجالاتها ومن التطلع إليها أن يتصور نفسه راكباً مركبة المحافظ أو أن يكون ممن يحظون بالدخول على «رياض باشا» ، يفتح عينه على الدنيا كل يوم قبيل الظهر ، فتتجلى الستائر عن النوافذ ويؤذن لنور النهار أن يدخل ، وبعد أن يقضى ما يشاء من الساعات التي تأتي إلا أن تكرر ، في التظى والتأويب وتناول الطعام والقهوة المرة مذاًباً فيها العنبر ، يقوم إلى ثيابه فينتقى منها جبة وقفطاناً منسجمين متجاوبين ثم يلف العمامة - ولفها مهمة شاقة قد يستغرق بقية النهار إلى العصر - ثم ينزل إلى المنظرة ويتلبث بها ريثما يشرب القهوة ويشد أعصابه ثم يخرج إلى دكان بدال أو حلاق أو عطار أو غير هؤلاء ، ويتواشى الرفاق وتروى أنباء السهرات . ويسأل السائلون عن «عبده» أو «عثمان» أين يغنى الليلة . ويتفق الاخوان على مكان يجتمعون فيه وشراب يجلسون إليه . ثم يتحاملون بعد أن يقضوا وطراً من النهار إلى المغنى ولعلمهم غير مدعويين فيظلون إلى طلوع الشمس في آهات صاخبة وضوضاء ترج ما بقي من الرأس ونزول الكيان .

ومجالس أنام البلد تكات خشنة وضحك مفرق . وأعذب ما يكون

طعم الحياة في أفواههم حين يركبون صاحباً لهم بدعابة عملية . أعرف واحداً من أطرف أبناء البلد وأكرمهم وأرقهم حاشية لا يرضى عن نفسه إلا إذا استطاع أن يوقع واحداً من يسهل التماجن عليهم في مأزق أو يزج به في ورطة . وكان يستثقل ظل واحد من حراس المقابر . وكان هذا لا يفتأ يغشى مجلسه وينغص عليه لذاته البريئة بتذكيره بالموت وإحضاره إلى ذهنه . فأراد أن ينفيه عن هذا المجلس فأوعز إلى خادم فاستأجر هذا مكارياً وبعثه برسالة إلى صاحبنا الحارس مكتوبة على لسان تاجر معروف والدته مريضة يدعوها فيها إلى الحضور إليه بأسرع ما يستطيع للاتفاق على بناء مقبرة فجاء المكارى إلى الحارس بالرسالة ففضها فتهلل وجهه وراح يحسب الريح المنتظر من وراء هذه « المقولة » فلم يصرف المكارى بل ركب الحمار ومضى إلى التاجر ودخل عليه وحياه ودار بينهما حديث :

الحارس - إن شاء الله تكون الوالدة بخير

التاجر - بخير بارك الله فيك

الحارس - هل هي مريضة جداً ؟

التاجر - نعم ولكن الله المستول أن يخفف عنها ويلطف بها

الحارس - إن شاء الله . لقد بعثت لى حضرتك برسالة وقد جئت

حسب أمرك

التاجر - (مستغرباً) رسالة لماذا ؟

الحارس - نعم أأست حضرتك فلاناً ؟

التاجر - هو بعينه

الحارس - إذن الرسالة منك

التاجر - ولكن .. هل تسمح لي بمعرفة اسمك ؟

الحارس - آه ! يظهر إن حضرتك لم تعرفني ، ولهذا تستغرب أن تكون قد بعثت إلى رسالة . أنا فلان

التاجر - أرجو .. أن تزيدني بياناً فلست أذكرك ولا مؤاخذه

الحارس - هذا غريب !

ورأى أن يحل الإشكال ويحسم الخلاف بتقديم الرسالة التي تلقاها .  
وتصور موقف الرجلين حين فض الرجل الخطاب واطلع على هذه  
(البشرى) في الصباح الباكر

ومن نوادر صاحبنا أنه وصف مرة لبخيل طريقة لصنع (الكنافة)  
وأقنعه بتجربتها . وجاءنا البخيل بعد أيام - وكان ذلك في رمضان -  
يشكو ويسخط ويلعن ويقول : « اشتريت أربعة أرطال من الكنافة ،  
وناولتها امرأتى وقلت أعديها ، وجئت بثلاثة أرطال من اللبن الحليب  
كما أوصاني اللعين خيبة الله عليه ! - وغلينا اللبن قبل المغرب بدقيقتين ،  
وكانت (الكنافة) قد نضجت . فلما سمعنا مدفع المغرب صيينا اللبن عليها  
وأغرقناها فيه ، وأقبلنا على الطعام نتناول منه بقدر لنترك مكاناً  
(للكنافة) وإذا بها عجينة لا يؤكل ولا يصلح لشيء إلا أن يرمى للكلاب !! -  
وهكذا ضاع على ما أنفقته في الكنافة من السمن والسكر واللبن والزبيب  
والصنوبر والبندق والجوز واللوز وثمر الوقود ، وضاع على سائر ألوان

الطعام التي لم أكد أمسها ترقباً للكنافة . فماذا أدعو عليه ؟ ،  
وابن البلد لا يعرف الريف ولا يصبر عليه ، وإذا خرج إليه استغرب  
أن الطريق ليس غاصاً بالمساكن المتلاصقة ، وإن الأشجار قائمة هنا  
وهناك ، وأن الدنيا أرحب مما كان يظن ، وأحس بالميل إلى الضحك ،  
ولكن ثقته بنفسه تفارقه مع المدينة التي غادرها ، ويرى نفسه بين الفلاحين  
غريباً ويسمعهم يتكلمون فيما لا يفهم ، ولا يسهل إلا أن ينهر معهم بدلوه ،  
ويخطئهم عندهم سهراته وبجالسه ، ويحتاج أن يغير عاداته وأن ينزل عنها  
وأن يحتمل الاضطراب الناشئ عن ذلك ، ولا يحس في الريف ذلك  
التعاطف القريب ، ولا يفهم أن ينام على ظهر القرن ومع النساء والأولاد  
والطيور والبهايم لأن له (مزاجاً) والناس في الريف أكثر ما يكونون ،  
بعدها بعضهم عن بعض ، وهم يقضون أوقاتهم مبعثرين في الحقول فليس  
في مجالسهم ذلك الصقل ولا تلك النعومة التي تكون لمجالس أهل المدن ،  
فهى لا تخلو من جفوة طبيعية وتكلف محسوس وصخب مرجعه إلى اعتياد  
أهل الريف أن يتخاطبوا بأصوات عالية لبعده المسافات بينهم ، وقلما  
يشعر الحضري بحرارة الترحيب إلا حيث يكون قدوم الغريب «حادثة»  
يندر أن تتكرر ، فيتدفق الكرم المحبوس إذا لم يكن له مجال ! ولظهوره  
فرصة كبيرة فيقبل الناس عليه ويفرحون به إقبالهم على التحفة النادرة  
أو المنظر الذي لا يجود به الزمن مراراً - وهكذا كان الحال قبل أن توثق  
المدينة ما بين القرية والمدينة من الروابط ، وتسهل عليهما الاتصال  
والتبادل والتفاهم والتقارب .

وابن البلد قد يكون أديباً أو فناناً - إذا كان قد جاور في الأزهر

في صدر شبابه ، وأدبه البيت أو البيتان من الشعر يضمنهما نكتة لفظية أو معنوية ، يداعب بها صديقاً ، وأكثر ما يكون نظمه للأزجال والمواليات ، وربما نظم التوشيح ودفع به إلى ملحن أو مغن ، وهو لا يحفظ من الشعر إلا ابن الفارض ومن إليه ، وإذا كان فناناً فهو من هواة ( العود ) على الأخص ، تبتدى وتنتهى دنياه بالشراب والسماع والوجه الحسن ، وفيما عدا ذلك لا وجود للعالم .

ولا يعرف ابن البلد الحب ولا يحسن أن يعشق ، والجمال عنده يوزنه أرتالاً أو قساطير ، والمرأة مخلوق يداعب ويفازن ويمش إلى آخر ذلك ، وليست إنساناً يبادلك التعاطف ويعاونك في الحياة ويقاسمك متعها ومتاعها ويؤدى مثلك وظيفته التي خلق لها . وقد ترى ابن البلد عاشقاً ولكنه عاشق بجواسه ، لا يعرف صبوة النفس إلى النفس وحنة القلب للقلب .

وهو يجود في غير كرم ، ويمسك في غير بخل ، ويتكلم بغير علم . ويضحك بغير جدل . ويحتشم في غير أدب . ويسير في الدنيا غير محتفل . ويقضى الحياة غير عابئ بما كان أو مكثرت لما يكون . همه أن يأكل وينام ويسر ويضحك . فالضحك وما يعين عليه من الشراب ومجالس الإخوان غرض يسعى إليه وغاية تعتمد . والحياة آخرها الموت . فما خير التعب فيها وإرهاق النفس بالعمل والطلب ؟ أليس كل شيء إلى فناء ؟ فما أولاد باغتنام الساعة التي يكون فيها وما أسخف من يعنون أنفسهم ويحرمونها لذاذا العيش ومتع الوجود ؟ ألم تر إلى فلان الذي قضى عمره يجمع المال



ويطلب المناصب ويريق ماء وجهه على الاعتبار ويقترب على نفسه ليغنى  
ويضيق على ذويه ليتسع ٢.. ألم تر إليه كيف قضى نحبته وهو جالس  
على باب الحلاق ؟ فإذا أجدى عليه تعب وسعيه وتقتيره وحشده ٢. إن  
فيه لعبرة لسواه . فهات الكأس وأصلح الأوتار ، وأطلق صوتك  
بالغناء يننى عن النفس وحشتها وتجمل صداها وتنسأ أن الحياة إلى انقضاء .  
فإن البلد فلسفة عملية تجهل نسبها العريق في الأبيقورية المشوهة ،  
ولم يعف عليها الزمن حين عفى عليه .

## صورة وصفية لصحفي

قضى ( م . ) سنة كاملة يعمل في سكون في الصحيفة التي التحق بها ،  
ويؤدي الواجب الذي وكله إليه رئيسه باخلاص ودقة وكان واجبا شاقا ولكنه  
كان يجد فيه ملهة عن هموم الحياة . وعرف له رئيس التحرير فضله فكان  
لا يفتأ يثني عليه ويشجعه ويبلغه حسن رأى الناس فيه وحدهم مجهوده ،  
وكان يخطئه ان يسمع هذا المدح ولا يدري لماذا يجب فيقطب هو ويريد  
ان يبتسم - ويتلفت يمينا وشمالا كأنما يبحث عن نافذة يثب منها . وطلب  
منه رئيس التحرير يوما صورته فريح المسكين وقال « صورتي ؟ »

قال « نعم صورتك . نحن في ديسمبر كما تعلم »

قال وقد زادت حيرته « أعلم هذا ، ولكن ما العلاقة بين كوننا في  
ديسمبر وبين صورتي ؟ »

فابتسم رئيسه وقال « قد اعتزمت أن أعطيك جواز ركوب مجاني  
للترام . هذا ما أستطيع أن اكافئك به الآن ، وقد كان بودى أن ازيد مرتبك  
ولكن لأرى هذا ميسورا في الوقت الحاضر . وفي مرجوى أن أستطيع  
بعد قليل »

ولبت أيا ما ينجل أن يبرز الجواز أو ينبيء عمال الترام انه « ابونيه »  
ويؤدي أجر الركوب ، ذلك أنه أحس بشيء من الحرج لان الجواز

بجاني ، وخيل اليه لغير ما سبب معقول - أن ( الابونيه ) منحة من الشركة ، فلا يبعد أن يخطر لها يوما أن تسترده ، وتجسم له وهمه فكان يتصور أن العامل جاءه يطلب ثمن التذكرة ، فقال له ( ابونيه ) فطلب رؤية ( الابونيه ) وفتحه ثم طواه ودسه في جيبه وقال ( تذكرة من فضلك ) ومع اطمئنانه إلى استحالة هذا ، صار يستدرج أخوانه الذين يحملون مثل جوازه ليركبوا معه . أو على الأصح يركب معهم وأن كان طريقهم غير طريقه ليطمئن ويتشجع ، حتى أُلّف هذه الحالة الجديدة . وعلى أنه مع ذلك ظل زمنا كلما مر به عامل الترام وهو راكب ، يتوخى أن يكون سلوكه وهيمته على خير ما ينبغي . فإذا كان واضعاً رجلاً على رجل انزلها وإذا كان يتكلم صمت ، وإذا كان ناظراً إلى اليمين أو الشمال رمى بعينه إلى الأمام كأنه تلميذ لمحذو المدرس يتشاغل عن الدرس .

وكتب يوماً مقالا ودفعه إلى رئيسه فما راعه في اليوم الثاني إلا رؤية المقال في صدر الجريدة وفي ذيله اسمه . فالتقى القلم وأسرع إلى رئيسه يؤكد له أنه لم يذيل المقال باسمه ، وأن المستول سواه عن هذا الخطأ أو التصرف المعيب .

فقال رئيسه ، ألم يخطر لك أن من الغبن أن جمهور القراء يحمل اسم كاتب مقالاتك ؟ ، فدهش واستحيا أن يخالف رئيسه لاجبنا ، بل لأنه لا يجب أن يتهم رئيسه بقلة الفهم ، ومضى الرئيس في كلامه فقال :  
« لقد وضعت اسمك في آخر المقال حتى من غير أن استأذنتك ، فتعتم العفو . أستغفر الله »

« لأنى رأيت أن من الواجب انصافك . إن أسلوبك فيه فن وقوة  
لا أرى لهما مشبهاً فى كتابات غيرك . ومن العدل أن يعرف القراء أنك  
أنت صاحب هذا الفن الرائع ومبتكر هذا الأسلوب المحكم ،  
فوجد قوة كافية للاعتراض فقال : « ولكنى لا أعرف أن  
لى أسلوباً . . . »

فقاطعه رئيسه إن هذا تواضع يزيد قدرك .  
فتحامل على نفسه وقال « أؤكد لك أنى صادق ،  
« لا شك فى ذلك ،

« ليس لى أسلوب أو فن ، وليس فى قولى هذا شئ من التواضع  
أنها الحقيقة . »

قال الرئيس « إذن هو كبر أن يكون بك كبر ،  
قال « كلا . كلا . ولا هذا ،

قال الرئيس وقد ضجر « إذن أعصابك متعبة استرح بضعة أيام ،  
ولكنه لم يسترح ، وحاول بعد هذا الحديث أن يكتب فصار يمزق  
ورقة بعد أخرى ولا يزيد على سطر فى واحدة منها . فوضع القلم يائساً  
وقال ما أظننى أستطيع أن أكتب شيئاً بعد هذا ، وراح يعجب كيف  
كان يؤاتيه الكلام وكيف صار يستعصى عليه الآن ، أسلوب ؟ فن ؟  
ماذا يعنى ؟ إن كل ما يعرفه إنه كان يتناول القلم ويجريه على الورقة ،  
وكانت الألفاظ تسعفه ولم يكن يجد عناء فى تخيرها ، بل لم يكن يتخير  
أو ينتقى ، فما له الآن لا يقدر أن يخط حرفاً ؟

وتناول طائفة من أعداد الجريدة وجعل يقرأ مقالاته من جديد  
لعله يقع على ما فيها من الفن ويتبين ذلك الأسلوب الذى يذكرونه ، فلم  
يهتد إلى أسلوب أو فن ، وألقى الصحف ونهض عن المكتب واستأذن  
فى الخروج ، وقد أيقن أن مستقبله فى الصحافة قد قضى عليه .

•

وبعد بضعة أسابيع دعاه رئيس التحرير وطلب منه أن يتحرى  
مسألة من المسائل . فقال « أرجو أن تدع لى مفاتيح المكتبة »  
فذهل رئيس التحرير وقال « المكتبة ؟ أو تحسب أن هذا مما يوجد  
فى الكتب ؟ »

فسأل « أين إذن أجده ؟ »  
قال « لو املتئى لما أحوجتنى إلى هذا . » وشرح له الموضوع ثم  
قال « فعليك الآن أن تقابل وزير الخارجية فى مكتبه ،  
فسأل « متى أستطيع ذلك ؟ »

فضجر الرئيس وقال « لانكنى طفلا يام . . . »  
وفى صباح اليوم التالى ركب سيارة حملته إلى الوزارة المقصودة ،  
فلما دخل لم يدرك إلى أين يذهب ولا إلى أى ناحية يقصد ووقف لحظة  
يدير عينه فى البناء ويرجو أن يلقى أحدا تكون له به معرفة ، ولما طال  
الأمراح يتمشى ثم خشى أن يضيع الوقت فعاد إلى الجندى الواقف  
بباب الوزارة وقال :

هل تستطيع أن تدلنى على غرفة صاحب المعالى الوزير ؟

فصعد الجندي فيه نظره وصوبه ثم قال : أدخل من هنا وامشي في  
خط مستقيم ،

ففعل ولم يزل داخلا حتى صار في حجرة واسعة فاخرة الاثاث  
ولكنه لم يجد فيها لا مكتبا ولا وزيراً والتفت فرأى باباً موارباً فد  
عنته وأطل منه فرأى مكتبا وليس أمامه إنسان ، فشجعه خلو المكان  
فالتفت وراءه فلم يجد أحداً ، فتقدم خطوة وأطل مرة أخرى فأخذت  
عينه ما أيقن معه أن الغرفة غرفة الوزير ولكن الشك خامره . إذ أين  
الوزير والساعة الآن الحادية عشرة ؟ وكيف يخلو المكان من حجاب  
وشرطة وموظفين قائمين في خدمته ؟ كلا . بل أكبر الظن أن الوزير في  
مكان آخر . ورجع فالتقى بشرطى فسأله . فقال بل هي الغرفة وهنا  
( وأشار إلى غرفة صغيرة ) سكرتير الوزير . لحمل بطاقته مستأذنا في  
الدخول عليه وخطر له وهو يناوله البطاقة أن يخبرى الصحف مساكين  
لأنه ظنهم لا يدخلون على موظف إلا إذا بعثوا إليه ببطاقاتهم مقدما .  
وأذن له في الدخول لحياه بلسانه ورفع يده بالسلام فلم يرد السكرتير  
على أن هز رأسه ، وقال نعم . قال هل أستطيع أن أقابل معالي الوزير ؟  
قال السكرتير : أنه مريض .

فقال صاحبنا : مريض ؟ لا بأس عليه . أرجو أن تبلغه سلامي ،  
فابتسم السكرتير وخرج م . وقد سره أن الوزير مريض وأنه نجا  
من لقائه أكثر مما ساءه أن عاد بلا جدوى .

وخيل له أن رئيس التحرير يدرك ما انتابه وأنه يعتمد أن يصرفه  
عن الكتابة ويكلفه مهمات من هذا القبيل فقد بعث به في اليوم التالي

إلى وزير الحقانية ، فخرج ولم يركب في هذه المرة سيارة لأنه تفقد ما في جيبه فاستقله ، ولم يشأ أن يرهق الجريدة بكثرة النفقات ، وخجل أن يطلب أجرة الركوب مقدما . ولم يكن قد احتاج من قبل أن يذهب إلى وزارة من الوزارات فسأل بعض من لقيهم في الطريق فدلوه ، وكان وهو سائر يفكر في ثقل هذه التكاليف وفي هذه الضرورات المتعبة ، وانتقل من هذا إلى التفكير في الموضوع الذي يقصد إلى الوزير من أجله ، فلم ير أن المسألة تحتاج إلى استفهام أو لقاء وزير ، وكيف يبدأ الكلام ؟ وماذا يفعل إذا رفض الوزير أن يجيب ؟ ولماذا لا يذهب رئيس التحرير بنفسه ؟

وكان في أثناء ذلك قد دخل من باب وزارة وقطع الفناء ووصل إلى السلم فصعد وهو لا يزال يجاور نفسه وسأل عن غرفة السكرتير فسار به شرطى إليها فأعرب له عن رغبته في مقابلة الوزير ، وكان السكرتير يعرفه فأكرمه ورحب به وطلب له قهوة وبعد نحو ساعة مضى به إلى باب فتحه وأشار إليه أن يدخل .

فقال الوزير « أهلا وسهلا . . . زيارة نادرة ، تفضل ، اجلس على حرف الكرسي وافترقه عن ابتسامته بلهاء ، وكان يدرك أن عليه أن يتكلم ، ولكن لسانه خائنه كأنما قد استل منه ، ولم يكن ينقصه أن يحدث له هذا ليزيد ارتباكاً ، وكان الوزير دمثاً ريفياً الخلق فابتسم وقال له وهو يميل إليه :

« أتشرب القهوة ؟ كلا ! إذن خذ سيجارة ؟ ولا هذه ؟ ألا تدخن ؟ ، فأوماً المسكين برأسه أن نعم ، فقال الوزير « إذن يجب أن تدخن ؟ ،

وقدم له العلبة فأخذ منها واحدة وأسقط واحدة أخرى على المكتب واستطاع فضلا عن ذلك أن يطير بكمه بضع أوراق .

وانحنى يريد أن يلتقطها ويعيدها إلى مكانها فصدم المكتب برأسه ونزل الطربوش إلى أذنيه ، فضحك الوزير وقال : « لا بأس والآن ماذا أستطيع أن أفعل لك »

لجر صاحبنا الكرسي ودنا به من المكتب وتنحى ثم استطاع بجهد أن يفضي بالموضوع ، وكان الوزير في أثناء ذلك يقطب حاجبيه أو يرفعهما أو يستعيده بعض ما يسمع منه ، وهو مستغرب ، وصاحبنا لا يفتن إلى آيات الدهشة في وجهه ولا يدرك أمارات العجب ولا يلتفت إلى دلائل الملل ، وأخيراً قال : « وقد جئت راجياً أن تفضلوا على بيان واف على قدر المستطاع في هذا الموضوع »

فقال الوزير ولم يخف امتعاضه « ولكن هذا من اختصاص وزير الحقانية »

ولو كان صاحبنا حاضر الذهن لفطن إلى الغلط الذي وقع فيه ولا استطاع أن يحسن التخلص ، ولكن لسانه سبق رأسه فقال :  
« ولهذا جئت لمعاليكم »

قال الوزير وقد اشتد امتعاضه « ولكني لست وزير الحقانية ، فبهت المسكين ، ووقف لسانه في حلقه ، ودارت به الأرض ورئى الوزير له وادركه العطف عليه فلاطفه وقال :  
« لا بأس ، الغلط مردود (وضحك) لم يضع الوقت ، يمكنك أن



تقصد إلى وزير الحقائقية الآن ، لقد سرتنى زيارتك على كل حال وأرجو أن أراك مرة أخرى ، نهارك سعيد ،

وخرج م. وهو لا يرى ولا يفهم شيئاً . ماذا عسى أن يقول عنه رئيس التحرير أو أى إنسان حين يعلم أنه يخطب بين وزير الحقائقية ووزير... أى وزارة هذه التى كان فيها ؟ حتى هذا لا يعرفه أو هل يجرؤ الآن أن يستنجر أحداً ، وهل يجرؤ أن يعود إلى جريدته جاهلاً أى وزير قابل فوق ما كان من جهله وتخليطه .

ولم يكن يخفى عليه أن الحل الوحيد هو أن يقصد إلى الحقائقية ويقابل وزيرها . ولكن اضطرابه بلغ مبلغاً احتاج معه إلى علاج ، فقصد إلى تهوة قريبة وألهم أن يطلب كأساً من الويسكى جرعتها صرفاً ولم يلبث أن سكنت نفسه قليلاً ، فشرب كأساً ثانية وثالثة ثم قام إلى بغيته وبه من الثقة بالنفس ما لا يذكر أنه أحسه من قبل ، ورأى من الأمانة أن يكشف رئيس التحرير بما كان من غفلته . فضحك حتى كاد يقع من فوق كرسيه وقال :

« يا صاحبي . انك كاتب لبق يسمعك ما لا يسع فرقة بأسرها من الكتاب حين تجلس إلى مكتبك ، ولكن حين تلقى الناس لا تعود صالحاً لشيء أو قادراً على شيء . فاذهب إلى مكتبك ولا تزايله فما نستطيع أن نخلقك خلقاً جديداً

## حلم بالآخرة

- ١ -

### وادی الاشباح

عدت من هياكل (الكرنك)<sup>(١)</sup> مكدوداً مغفراً ، وكان الجو دافئاً والسماء صافية لا أعرف لزرقها في غير (الأقصر) مشبهاً ، فغيرت ثيابي وبدلت أن خير ما أصنع — لأريح جسمي التعب وذهني المكظوظ — أن أركب زورقاً أسبح به على النيل . ولما استويت فيه دليت يدي إلى الماء وانثنييت أفكر فيما رأيت واستعيد ما شهدت ، ولكن صورة (سخت) في حجرتها المظلمة أفسدت على هذه الفكرة التي كنت أرجو أن استمتع بها في زورق على النيل ، ومن ذا الذي يراها ولا تعود أبرز ما يطيف برأسه — رأس لبؤة وجسم امرأة ، وعينان ليستا بعين امرأة ولا عين سبع ، تحدقان في الظلام وتبحثان عن الفريسة وذلك أنها هي الموكلة بالتهام الارواح المذنبية في الآخرة .

وأغفيت وأنا أفكر فيها ، ورأيت وأنا نائم على النيل حلاً مضطرباً كله تخليط على عادة الأحلام . وانقلب النيل نهراً آخر — ستيكس — نهر الاغارقة الذي تقول أساطيرهم أن الموتى يعبرونه إلى وادی الاشباح ،

---

(١) في سنة ١٩٢٤ .

وأض الملاح الذى يجدف به على النيل ( شارون ) (١) وإذا على الشاطئ .  
حشد عظيم من الأموات يسوقهم « هرمرز » بالعصا وهم يكون ويولولون  
ويندبون الحياة التى خلعوا ثوبها ويبغون الرجعى إليها ولا يطيقون  
الحقيقة العارية الباقية التى صاروا إليها ، ولا يتعززون عن أحلام الدنيا  
التى كانت تفيض لهم على الوجود بريقاً مستعاراً خادعاً ؟ آه لقد ذهب  
سماؤهم كلها مع تلك الأحلام !

وحشروا جميعاً فى الزورق الذى اتسع لهم جميعاً ، الأطفال حزمة  
واحدة بلا سؤال أو مراجعة ثم الشيوخ والعجائز الذين لم يكن لهم أحد  
ثم قتلى بعض المعارك فى جهات من الأرض لم أسمع بها فى حياتى - فسا  
أحوج علم الجغرافيا إلى بعثة تذهب إلى هناك - ثم رجل قتلته امرأة  
وعشيقها « ثم الذين افترسهم الحيات ومعهم طبيب هرمرز » ودفع شارون  
الزورق على اللجة ، وتركنى على الشاطئ فاحسست بالوحشة وخفت  
أن اتعفن إذا بقيت وحدى إلى الغد ، فصحت بشارون أن يحملنى معه  
فأبى وقال إن الزورق غاص وليس فيه موضع لقدم ، فيشئت غير أن  
واحداً من الركاب أهاب بى أن ألقى بنفسى فى الماء وأصبح فقلت له إنى  
لا أحسن السباحة وقد ... أغرق

ففقته وقال : ماذا تخشى من الغرق وقد مت ؟

فرميت بنفسى فى الماء وعمت إليه ومد يده لجذبى ودار بعينه فلم

---

(١) الملاح الذى ينقل الموتى على زورقه إلى وادى الأشباح .

ير إلى مكاناً فاطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال وهو يبسم :  
أنا أيضاً قلق في موضعى هذا ، فتعال بنا ننتقى لنا اثنين من هؤلاء  
المعولين المنتحبين نجلس على اكتافهما !  
وفعلنا ودار شارون بالركاب يتقاضى أجره النقل ، وتنبهت إلى  
ذلك فقلت لصاحبي : ولكنى معدم وقد جردوني من كل شيء لامت  
فإذا أصنع ؟  
قال : لا بأس عليك ! فما أنا بخير منك ، فاسكت أنت ودع  
الأمري ،

وجاء شارون يطلب الأجر ، فقال له زميلي :  
« ماذا تنتظر من ليس معه شيء ؟ »  
قال شارون : « كيف ؟ أهنك أحد ليس معه أجره النفس إلى  
الوادي ؟ »

قال : « لا أعلم ولكننا هنا اثنان لا نملك ملياً فأشر ماذا تأمر ؟ »  
قال شارون : « واثنان أيضاً ؟ وحق بلوتو اخنقكا ! »  
قال زميلي : « خذ الأجرة من بعثوا بنا اليك ! »  
قال شارون : « ولكنك كنت تعرف أن عليك أن تؤدي لي هذا  
الحق فلماذا تستعد قبل هذا المحي ؟ »  
قال : « لم يكن معي شيء ، فهل كان ينبغي أن تظل أحياء وألا  
تموت من أجل ذلك ؟ »

قال شارون : « تريد أن تكون الوحيد الذى يحمل إلى الوادى  
بلا مقابل ؟ »

قال : « كلا ! لست الوحيد فان لى رفيقاً ومؤنساً إلى جانبي كما بينت  
لك ، وعلى أنا لا نحمل مجاناً ، فانا وحدنا دون جمعك هذا لا نبكى  
ولا نتدب ، ثم انا خفيفان لا نثقل زورقك ، وإذا شئت عاوناك ولم  
نقاسمك الربح ولم نطلب منك الأجر ،

قال شارون : « ولكن هذا لم يحدث قط من قبل فهو غير جائز ! »  
قال : « إذن ردنا إلى الحياة »

فالتفت شارون إلى هرمز <sup>(١)</sup> وقال :

« من أين جئت بهذين الحمارين ؟ وانظر كيف يضحكان ، على حين  
يبكى كل إنسان ؟ لقد كان أولى أن يبقيا هناك على ظهر الأرض فاما هما  
بجديرين بالموت ،

ومضى عنا وهو يسبنا ويتوعدنا بقبضة يده ، فأسر إلى زميلي :  
« ما أسخف وعيده ! أيموت المرء مرتين ويحمل إلى الزورق  
مرتين ؟ »

ثم قال لى بعد برهة ..

« لقد هبطت أنعام العويل والنحيب ، فما قولك ؟ أليس من الواجب  
أن نضطرهم إلى رفع طبقها ؟ »

---

(١) هو الذى يتلقى الموتى ويذهب بهم إلى شارون لينقلهم

قلت : « ولكن كيف يسعك ذلك ؟ »

قال « انتظر ،

وتنجنح ثم انطلق يغنى :

أقبل الليل علينا بدجاء فاسقنا ، فالعمر آيات الشباب  
غننا صوتا كأمواج الحياة بين لين واعتلاج واصطخاب

•

ولم يكد يفرغ من هذه المقطوعة حتى علا الصياح والنشيج . فواحد  
يقول « وا أسفاه على ما خلفت ؟ » وثان يصرخ « ويحي سيبدد أخى  
ما ورث غنى ، وثالث يصيح « ألا من لصغارى ! » وهكذا .

ومضى صاحبي فى غنائه :

أقبل الليل فهات القدحا أو ليس العمر أيام الصبا ؟  
غننا لحننا نديا فرحا يطلو، الأوصال من قيد الحجى

•

وارقصوا بين المنايا واطربوا أو ليس العمر أيام النعيم ؟  
وإذا ما لامكم مستغرب . فدعوا اللائم يذهب للجحيم  
فدنا «هرمز» منه وأوماً إليه أن كف ثم قال :

« أن هذا لا يليق ومن واجبك أن تتدب كالباقين ،

قال مستغرباً « أندب ؟ أندب الخط الذى أتاح لى هذه الزهة  
الظريفة ؟ »

قال هرمز « أن سلوكك شائن . فارسل عولة أو اثنتين على الأقل  
فما يجوز أن تشذ عن المألوف »  
قال زميلي « حسن . سأفعل »

ثم وضع كفه على خده وانطلق يصيح ..

« وا أسفاه على ثوبي المرقع الذي لا يقي في شتاء ولا ينفع في صيف  
واحزنانه على الحنى ، لن أجوب الطرقات بعد اليوم متضوراً من الصباح  
إلى المغرب ، ولن أنام على الأفاريز وأتوسد الحجارة وأسنانى تصطك  
من البرد ، من ترى سيرت عكازتى التى كنت أتوكأ عليها ؟ ويختال فى  
مرقعى التى كنت أخطر فى هلاهيلها !

فضى هرمز عنه ساخطاً لاعتناً ورحناً نحن نضحك .

وأنا لكذلك وإذا « بشارون » ينادى هرمز ويصيح به :

« أن الزورق يوشك أن يغرق من ثقل ما يحمل . فاذا يفعل ؟

« فوقف هرمز كالآبله حائراً ، ثم وثب رفيق وقال « تعال ننقذ  
شارون فانا مدينون له »

قلت « أن الفرق شئ أفهمه وقد أحسه . أما ما عداه فلا علم لى به  
يا صاحبي »

قال « ولكنك تستطيع أن تشاركنى على الرغم من ذلك

ثم قال لشارون : « اسمع . جرد هؤلاء الموتى مما يحملون وألق به  
فى الماء . انزع هذه اللحي عن أصحابها . لقد كانت تنفعهم فى الدنيا أما

هنا فهي مثقلة بالغش والتضليل . ودعاوى التقوى والوقار والحشمة ،  
قال شارون « صدقت » ونزعها جميعاً ورمى بها « وماذا أيضاً ؟ »  
— ألا ترى هذا الرجل الذى يبكى ويختلس النظر إلى من حوله ؟  
قال شارون « نعم . ماله ؟ »

قال « أخرج من تحت أبطيه الكذب والنفاق والدهان تخلص  
من خمسة قناطير على الأقل . وهذه المرأة الجميلة ، عر وجهها وجرده من  
المساحيق فان وزنها يجاوز الطن ، أفعل وعجل . » ففعل .  
« وهذا الغرور الذى تنطق به عيننا هذا الرجل ، ألا تحس ثقله ؟  
أنه يكفى شعباً بأسره ! »  
« والفلسفة التى فى رأس هذا ، أنها أثقل من الحديد . ألق بها فى  
الماء . أسرع . »

فأطارها شارون عن رأسه

وهذا الأديب هاك . ماذا يصنع بكل هذه الألفاظ والمجازات  
والاستعارات والخيالات والسخافات ؟ إنها كافية وحدها لأغراق  
زورقك يا شارون ،

قال شارون « نعم والله ! أين كنت مخبئاً كل هذه الأثقال ؟ »  
ثم التفت إلى زميل وقال « كفى كفى يا صاحبي ! أن الزورق الآن  
أخف من الريشة . وأحسبني مديناً لك بإنقاذ سفيتى . »  
قال زميل مقاطعاً « أمسك لا تثقلها مرة أخرى بشكرك إياي ،



وعدنا إلى مكاننا وانطلق الزورق خفيفاً يشق النهر ويفرق أمواجه  
الراكدة ودنونا من الشاطئ عند الفجر وحاذيناه فوثب صاحبي إلى  
الأرض وأنا وراءه

ثم أهوى على الباب العتيق بحجر ضخم وراح يدقه كالذى يريد أن  
يحطمه فهب «أتروب»<sup>(١)</sup> وقد طار كراه وأقبل على الباب يتعثر في  
مشيته ، ورمى مصراعيه وسأل : من الطارق ؟  
قال زميلي : أنا ،

قال «أتروب» : أنت ؟ أنت ماذا ؟ ماشانك هنا ؟ ما اسمك ؟  
قال إلى زميلي وقال : كأنما كنت شيئاً في الدنيا فيعنيه أن يعرف  
من أكون ، ثم التفت إلى الحارس وقال :  
« ومن عسى أن أكون ؟ أتراك تتوهمنى بروميثيوس قد فك  
أصفاده وجاء يعتق البشر من أسر الموت ؟ »

ثم لوح بيده مشيراً إلى الركب الذى فى الزورق ورفع صوته مغنياً :  
حى يا أتروب ألوان الصباح      طلع الفجر عليكم بالرمم  
بين ندب وعويل وصياح      جاء وفد الموت من كل الأمم

---

(١) أتروب حارس الباب بوادى الأشباح

جاء وفد الموت يحدوه الدليل      ويغنى سوطه فوق الظهور  
ويميل الصف في كل ميل      وهو خلف الصف وثاب يدور

•  
لست خيراً منهمو وأسفاه      أو كان (الخير) إلا شططا  
غلط جاد به ، ثم أباه ،      دهر سوء لا يعيد الغلطا

•  
بل يعيد الغلط المستردلا !      أو ليس الناس أغلاط انعاد ؟  
ولو أن الدهر شاء لإمثلا      لخلت منهم قراهم والبلا

•  
وكان هرمز وشارون في خلال ذلك قد أفرغا حمولة الزورق ،  
فلما سمع الموق هذه الاغنية تصايحوا وضجوا وهموا بزميل ولكنه تلقاهم  
بابتسامة استخفاف وقال لهم : أيسوءكم أن يلحق بكم من خلفتم فوقها ؟

فارتدوا ساكنين ، وتقدم هرمز بورقة فيها بيان يحمل يعدد الموق ،  
فتسلها أتروب وبدأ يعد ثم كف وهو يقول :

« ماأظن ميتاً يفلت أو حياً يحى قبل الأوان . لمض بهم يا هرمز  
إلى ساحة رادامانتبس »<sup>(١)</sup>

فساقنا هرمز أمامه ، وتقدم صاحبي الصفوف وسرت معه في طليعتها  
وانطلق يغنى :

---

(١) قاضى الآخرة في أساطير الإغريق

دارنا مغرب أنوار الحياة      من رآها لم ير الضوء الطليق  
ما لمن يهوى إليها من نجاه      ما لما يغرب فيها من شروق

وهي في الأكوان دنيا عاقر      كل زخار له فيها ركود !  
ضرب السحر عليها ساحر      فهي عنوان على عقم الوجود !  
وطال بنا الانتظار على باب رادمانتيس إلى أن جاء دوري فتقدمت  
وزاحم زميلي فدخل معي ولما صرت أمام القاضي سألتني : ما اسمك ؟

قلت : « المازني ،

قال : « ماذا ؟ ال . . ال . . ماذا ؟ »

فلو كنت حياً لآحمر وجهي وقلت :

« المازني . لقد كنت أحسب شهرقي قد سبقتني ،

قال : « دع هذا المزاح . من أين جئت ؟ »

قلت : « من مصر ،

قال : « مصر ؟ ولماذا جئت إلينا ؟ »

قلت : « وأين كان ينبغي أن أذهب ؟ »

قال : « إنك من إفريقية فاذهب إلى قسمك ،

قلت : « من أين ؟ عهدي حديث بهذا الوادي ،

قال : « لا بأس ، سيدلونك عليه . ياهر من . أرشد هذا التائه

إلى سومبور ،

فألقيت إلى صاحبي نظرة أسف على فراقه ، ف جذبني إلى الوراء وأسر  
إلى : « سأذهب معك ،

قلت : « ولكنك لست من مصر ،

قال : « ماذا يهم ؟ من أنا حتى يعرفوا أمن مصر أنا أم من غيرها ؟  
هيا بنا .»

— ٢ —

### بين أبرى الفضاء

انصرفنا من ساحة رادمانتيس وثلثنا الخطأ إلى الشاطئ - وكان  
هرمز قد سبقنا - وفي مرجونا أن يحملنا شارون إلى القسم الإفريقي فألفينا  
هرمز وشارون مختلفين. يقول هرمز:

« لقد آن جداً يا شارون أن تؤدي إلى ذلك الدين القديم فابقي  
لك عذر ،

فيقول شارون : « ما أحسبني أنكرت قط يا صديق أنى مدين لك ،  
فهو هرمز كفيه ويمط شفقيه ويقول : « لشد ما نفعني أنك لا تقصر  
في الاعتراف ! . هذه عملة لا أعرف أحداً سوى يقبلها ، فهات ما عليك  
وانكر إذا شئت أنك مدين لى ،

فيبتسم شارون ويفرك كفيه ويقول : « ولكنك لم تبين لى قط مقدار  
هذا الدين ، فيقبل عليه هرمز ويقول : « ان البيان حاضر فليتك مثلى

استعداداً لتقديم الحساب . المرسى والحبل بسبعين قرشا .  
فيقاطعه شارون « سبعون قرشا . وحق بلوتو لقد خدعوك !  
أو انت تضحك على شيتي !  
فبنتفض هرمز واقفاً ويقول بصوت عال « أضحك عليك ! أنا ؟  
أهذا جزائي منك ؟ لا مال ولا شكر ؟  
شارون - هون عليك يا صاحبي فما إلى هذا قصدت . سبعون قرشا  
إذن وماذا أيضاً ؟  
هرمز - وابر لترقيع القلع ، وشمع لسد الخروق ، ومسامير ، وجلد  
للجناديف بعشرين قرشاً ،  
شارون - صفقة حسنة . وماذا ؟  
هرمز - هذا كل ما أذكر ، تسعون قرشا ، ويسط يده  
شارون - الآن يا صديقي يتعذر علي أن أنفذك هذا القدر ، فان  
العمل قليل والربح ضئيل . لاوباء يفتك بالناس ، ولا حرب تصدم ،  
ولكني أعدك أن أودى البك دينك إذا نشطت الحركة ،  
هرمز - ممتعضاً - الأفضل عندي أن يظل دينك مطولاً .  
ثم نظر إلينا وقال « هيا بنا ،  
فقال شارون « هذان المفلسان لا عجب أن يعودا وأن ترفضهما  
حتى الجحيم .  
فقال صاحبي « الا تنقلنا إلى .. »

فقاطعه شارون ولم يمهله ريثا يتم كلامه « أنا ؟ أتراني جنت ؟  
اذهب انت وصاحبك فافيكما خير . »  
وهكذا رددنا ، وذهبنا سيرا على الاقدام ، وجعل هرمن يشكو  
في الطريق ويتسخط ويعرب عن تبرمه بحياته وكثرة الواجبات الموكولة  
إليه . فهو يقوم في الفجر ويعد المائدة السماوية ويرتب حجرتها ثم يقف  
بجانب زيوس ليتلقى أوامره وليؤدي رسائله إلى أصحابها النهار كله ، وفي  
الليل لا ينام بل يذهب بالموثق إلى بلوتو ويقف في ساحة القضاة حاجباً ،  
ثم أنه يدرب الخطباء ويشهد الاجتماعات ويفعل غير ذلك أشياء يخطئها  
الحصر . حتى لقد كان يؤدي وظيفة الساقى لزيوس قبل أن يتزيا  
( زيوس ) في زى نسر ويخطف الغلام ( جانيميد ) ويتخذ ساقياً  
له يأخذ من كأسه رشقة ، ومن شفتيه البضتين أخرى ، ويكأيد به زوجته  
( هيرا ) .

وأخيراً بلغنا سهلاً فسيحاً أمام ( الكرنك ) وسرنا مسافة في ظل  
أشجار الليمون ، حتى خرجنا من تحتها ووقفنا مع آلاف الموثق من  
أمثالنا ، وكان القضاة خمسة وقد جلسوا صفاً واحداً ، فأسر إلى صاحبي  
ان تعال نشهد الرواية من أولها ، وجذبي وزاحم بي حتى صرنا إلى الصف  
الأول فسمعنا من عرفنا من حولنا أنه ( سومبور ) وهو رجل نحيل  
هزيل الجسم متهم الوجه أسود العينين براقهما وفي يده زهرة من  
زهرات البردى يقول :

« أيها الزملاء ، ان ( سخت ) تنتظر ! »

فسرت في أجسامنا رعدة ، وتودى الأول فتقدم وسمعنا كلاما كهذا .  
سومبور - وهو يبعث بزهرة البردى - قل الحق الذى تعرفه  
ولا تحاول أن تكذب . أهى الخمر ؟

قال الرجل - نعم

ديارناك - ( وهو مديد القامة معتد لها كالجندي لا يلتفت يمنة أو يسرة  
وحول وجهه لحية كثة ) .

« هل حوكت من قبل على الشراب ؟ »

الرجل - لا يا سيدى

مبرون - ( وهو عريض الوجه لماع الجلد كأنما كان قد دهنه بالليل  
يبتسم تارة ويتجهم أخرى وفى إحدى كفيه قطعة من الذهب وفى  
الأخرى صورة صغيرة )

« كيف تقول ؟ من أى بلد أنت ؟ »

الرجل — من قرية أسمها...

بوتا ( وهوبدين قصير أحمر الوجه أبيض الشعر له عينان كعيني  
الخنزير وأمامه ختم ذهبي كبير ) . دع هذا وقل لنا لماذا أولعت بالشراب ؟

الرجل — لأنه مريض .

بوتا — لست أفهم . انى أحب الكأس فأوالثنتين من الويسكى  
مشعثيا بالصودا ولكن الأفرط ... هذه هى المسألة .

الرجل — أن المسألة هكذا ، كلما الخ على الإحساس بالشقاء

افرطت في الشراب ، وكلما افرطت في الشراب زاد الحاح الإحساس  
بالشقاء . . .

مبزون — الحلقة المفرغة مرة أخرى .

موروسكن (رجل مثقف مغضن الوجه على ذراعه قطعة يسمح لها  
شعرها بيده الأخرى) وماذا عندك غير هذا على سبيل الدفاع عن نفسك؟  
الرجل — لا شيء . ولقد يخيل إلى الآن بعد أن مت ، انى كنت  
أستطيع أن أنقذ نفسى لو انى اشتغلت فى الدنيا بوصف السعادة للناس  
حين أحس أنا بالشقاء .

موروسكن — أتقصد انك كنت تريد أن تكون روائيا؟ هذا جميل  
الحق أقول ياسومبور . إنى أعتقد أن التفاؤل لا يزال يقوم فى الدنيا  
على قاعدة من مرض الفنان أو شقائه . أليس كذلك ؟ .

سومبور — قد يحلوك هذا البحث . أما أنا فاطلب أصواتكم .  
ديارناك — أن الشرب أفقد الدنيا جنديا . فليقذف به إلى (سخت) .  
مبزون — سخت .

موروسكن — ولكن الرجل يكاد يكون فنانا، إن التماس السعادة ...  
سومبور — ليس عندنا وقت لهذا . هاتوا بقية الأصوات .  
بوتا — سخت .  
سومبور — خذوه إليها — باربعة أصوات .

\* \* \*



وجروه إلى شجرة ليون وهمس صاحبي في أذني « جاروا ولم يعدلوا » .  
قلت « ولكن مورو سكن » .  
فقاطعتي صاحبي « أنه مغفل » .  
ونودي الثاني ، فتقدمت فتاة وسيمة شاحبة اللون مقدودة قد  
السيف ، ولكن عينها ، على جالها ، كالكهفين .  
وقال سومبور — كم سنك يا هذه ؟ .  
الفتاة — اثنتان وعشرون سنة .  
مورو سكن — قبل الأوان . قبل الأوان .  
بوتا — لماذا مت ؟ .  
الفتاة — فزعا .  
مورو سكن — فزعا ؟ ما أفسى هذا .  
سومبور — من أي شيء ؟ .  
الفتاة — من الشرطة .  
مبزون — آه أمنهن أنت ؟ .  
الفتاة — نعم يا سيدى ، ولكن مهما يكن ذنبى فقد شاركتي في  
أثمه رجل .  
مورو سكن — متأثرا — هذا حق وأنها لمن الفظائع الكبير ، أن يضع  
الرجال الشرائع وأن يتحيزوا فيها لأنفسهم .  
بوتا — ولكن ماذا دفعك إلى هذا ؟  
الفتاة — تزوجت رجلا كانت حياتي معه جحيمًا ثم أحبنى آخر

وظننته الرجل الموافق، ولكن الغريزة خانتني، ولقيت ثالثاً قلت لعله هو الموافق ولكنه لم يكن، وهكذا حتى لم أعد أعبأ من يجيء ومن يروح وأن كنت لم أزل أرجو أن أقوز بالرجل.

موروسكن - آه ! طلب الكمال والسعى إلى المثل الأعلى ..

ہوتا۔ ماذا تقول أمراق لو سمعنا ؟ أن لی فیات ... دعوها ،  
أخلوا سبیلها .

ممبرون۔ ان روابط المجتمع تنفك إذا أطلقناها . فلتنذهب إلى  
، ، تحت .

**ديارناك - سخت .**

سومبور - صوتان يطلبان لها الخلاص ، وآخران يبعثان بها إلى  
سحرة فعلی أن أوازن وأن أرجح أحد الرايين . إذا اطلقناها فكأننا أبجنا  
الخطيئة ، فبأى وجه بعد ذلك تنهى الناس عنها ونزجرهم عن مواقعها  
وننذرهم سوء المصير . إن هذا يكون خطراً بينا ، نعم أن الرحمة والعطف  
يدركان النفس على مثل هذه المسكينة غير أنا خلفاء إلا نطمئن إلى الصوت  
الذى يدعونا إلى الشفة ويغرينا بالرحمة ، ولا أكتسبكم إن نفسى لا تطاوعنى  
على الحكم عليها ، ولكنى على الرغم من ذلك أحس أنى أكون منكراً  
لنفسى ومعتلاً لسلطانى ومبطلا لوجودى إذا أعفيتنا من العقاب ، ونحن  
هنا قضاء الآداب وفياصلة الاخلاق ، افنسكر أنفسنا ونعطل وظائفنا؟؟  
كلا ! فبكرهى أقول ، سحرة ، فلتؤخذ إليها ثلاثة أصوات .

فسارعت باسمة وإن ظلت عيناها زائغتين ، وحطت على كتفها وهي  
سائرة حمامة بيضاء ، فأملت إليها خدها .

وقال صاحبي : « جاروا للبرة الثانية ، والحمامة شاهدي ، .

ونودي الثالث ، وكان إلى جانبي . فرفعت إليه عيني وعجبت كيف  
يكون صاحب مثل هذا الوجه شريراً ؟

وسأله سومبور - ماذا جاء بك إلينا ؟

الرجل - طردت عن كل باب ؟

موروسكن - يوشك أن يكون هذا ممتعاً ، فماذا انت ؟

الرجل - أنا كالريح تهب بشجرة بعد شجرة .

ديارناك - قل وأوجز لماذا طردت .

الرجل - لأنه لاخير في ، لأنني جاهل ولا مزية لي إلا حب كل ماهو  
حى . لأن كل من يلتقاني يقول : « إذا تقبلناه فقدنا القوة والمال ولم يبق  
لنا سوى الحب ، وما جدوى الحب ؟

ممبرون - انك عامل من عوامل الانحلال والتفكك .

الزجل - كالريح أيضاً - هي التي تحلل وهي كذلك التي تؤلف  
وتجمع .

سومبور - وهل في وجودك ما يعارض وجود القضاء ؟

الرجل - إن من يتقبلونني لا يعودون يعنون بالحكم على شيء لأن

قلوبهم تكون أحفل بالحب من أن تفكر في سواه .  
ديارناك - انت متمرد .

الرجل - كلا ، ولكن حيث أكون لا يبقى محل للأمر والنهي لأن  
كل شيء يكون في خدمة الحب .  
بوتا - هذه فوضى .

موروسكن - انى معجب بك ، ولكنى أحب أن أطمئن ، فقل  
لى : هل وجودك يضر براحة الحياة ونعيم العيش ؟  
الرجل - ما هي الراحة ؟ وأى شيء هذا النعيم ؟ أما شيء غير الايثار  
وكف الاذى وأن يخفق القلب بالغبطة وان ..  
موروسكن - دعنى من فضلك .

بوتا - ماذا يكون مصيرى لو أشركت الناس فى مالى ؟ وآثرتهم على  
نفسى ؟

كلا ! يا سيدى ، إن خير الدنيا إن تفتح سحت فيها لتبتلعك .  
سومبور - إذا بقيت إنى فلن يبقى محل لى ولا لقضائى .  
ديارناك - ولا لجنودى .  
مهورون - ولا لشرائعى .  
موروسكن - ولا لراحتى ، فأنا آسف .  
واجتمع الخمسة على أن يلقموا سحت هذا المسكين .

قال صاحبي « لقد أصابوا ،  
قلت « ماذا تعني ؟ بأى حق يرسلونه إلى سجن ؟ ،  
فقال « ليس هذا وقت الجدل ، فانهم يشيرون إليك ،  
قلت « إلى أنا ؟ ،  
والتفت إلى الخمسة فوجدت عيونهم على ، فتقدمت في اضطراب  
ووجل .

قال سوميور - من انت ؟  
أنا - أنا المازنى .  
بوتا - انت ماذا ؟  
أنا - أقول انى المازنى .  
ديارناك - بأى لغة تتكلم ؟ أسرع .  
أنا - انه اسمى .  
موروسكن - مسكين إن صبرك على حل هذا الاسم يرفع عنك  
أوزارك .  
أنا - ليس هذا ذنبى .  
موروسكن - قد غفرناه لك فإذا انت ؟  
أنا - أديب .  
بوتا - أديب ؟ اذن فانت عاطل وطفيل

أنا - كلا . لقد قتلتى العمل وما كانت شكواى إلا قلة الراحة .

موروسكن - اسمعوا . اسمعوا !

سومبور - مهلا . اتيحوا له فرصة . بأى شئ كنت تشتغل .

أنا - بالصحافة .

الجميع - الصحافة ؟ !

وانتفضوا جميعاً واقفين يشيرون إلى شجرة الليمون حيث وقف  
الثلاثة المقتضى عليهم .

وقال سومبور : سخط بالاجماع .

ثم التفت إلى زملائه وقال : وحسبنا اليوم هذا واعفوني من شهود  
التنفيذ قلت أقوى عليه بعد هذه الصدمة .

●

ووقفت تحت الشجرة مع رفاقي الثلاثة انتظر د سخط ، وإذا بصاحبي  
يجذبني ويقول :

« تعالى يا ابله ،

قلت : « إلى أين ؟ » ،

قال : « ماذا يعنيك وقد نجوت من سخط ؟ » ،

قلت : « نجوت ؟ كيف كان ذلك ؟ » ،

قال : ولقد عز على أن تكون بين الفرائس فذهبت إلى حيث قيدوا  
« سحت » ، فلما صار القضاء عندها سبقت الحارس فاطلقتها عليهم فالتهمتهم  
بدلا منكم ، ولكنى والله اسف على نجاة جارك ! على انى على العموم  
أراني أعدل من هؤلاء القضاء يرحمهم الله ،  
فأرسلتها صيحة فرح عالية فتحت عيني على النيل وحقائق الدنيا  
على شاطئيه .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠٨٨ / ٢٠٠١

I . S . B . N 977 - 01 - 7229 - 4



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لي طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعاً ملموساً حيناً يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمية بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر في كل دول العالم القامي وأسعدني انتشار التجربة ومحاولة تعميقها في دول أخرى. كما أسعدني كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كياناً ثقافياً له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتي الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أنني أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هي الإبن البكر ونجاح هذا المشروع كان سبباً قوياً لمزيد من المشروعات الأخرى.

وما زالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدراً أساسياً وخالداً للثقافة. وتوالي «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالي، تضيف دائماً من جواهر الإبداع الفكري والعلمي والأدبي وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادا ثقافياً لأهلي وعشيرتي ومواطني أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠  
قرش

36

Bibliotheca Alexandrina



0395559

مهرجان القراءة للجميع